محمد علي

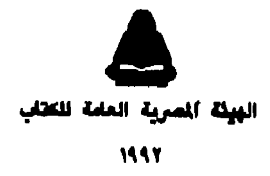
حسين كفافي



محمد على

رؤية لحادثة القلعة

د . حسين كفافى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

تصمـــيم الغـــلاف

للفنان : مصطفى حسين

اختيار اللوحات

الداخليـة للفنان : **محمد قطب**

الاخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبد الواحد

اهـــــداء

اهدى هذا الكتاب إلى الأم الكبـرى مصر وشعبها العظيم بقيـادة محمد حسنى مبـارك ... لنتذكـر معا التاريخ ومحمد على الذى عشقها ووهبهـا حياتـه ـــ واعطته مصر فى المقابل العزة والخلود .

د.حسين كفافى

عَلَمٌ أنتَ فى المشـــارقِ مفــردْ　　لـــك فى العـالمــينَ ذكـرٌ مُخَلَّدْ
تضعُ السيفَ موضعاً يرتضيه　　ومن البـأس مـا يُــذمُّ ويُحمـد
لا تبـــالى بحـــاســدٍ وعـــدوٍ　　آيةُ الفضلِ أن تُمـادَى وتُحسد
ليس من يفتـحُ البـلادَ لتشقى　　مثـلَ من يفتح البـلادَ لتَسعـد

من قصيدة أحمد شوقى « محمد على باشا الكبير »

تقديم

مؤلف هذا الكتاب الدكتور حسين كفافى أحد المصريين البارزين فى مجال العمل السياحى . والكتاب دراسة تاريخية غير تقليدية بحكم التناول ، فصاحب الكتاب لم يعن بالشكل بقدر ما عنى بفكرة اعتقد بصحتها ووضعها فى سياق محكم ليقنع الآخرين بصواب ما توصل إليه . وهو فى هذا استخدم من الصياغات الأدبية ما لم يعتد المؤرخون على استخدامه ، مما يمكن القول معه أنه عمد إلى الأخذ برؤية الفنان أكثر مما اعتمد على المادة العلمية المعروفة ، وهو أمر جائز ومقبول فى الكتابة التاريخية ، وقد سبقه إليه الأديب الراحل الدكتور لويس عوض مما جعل لكتاباته التاريخية طعم خاص ومما آثار حول هذه الكتابات جدل عنيف لم يكن يهدأ إلا ليبدأ !

و « الفكرة » التى قدمها الدكتور كفافى فى كتابه تقوم على مقولة بسيطة وهى أن حادثة القلعة التى جرت فى أول مارس عام ١٨١١ والمعروفة « بمذبحة المماليك » كان محتما أن تحدث ليتحرك التاريخ فى مسارة الذى اتخذه بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر فى اتجاه التحديث .

والفكـرة التى طرحهـا صاحب هـذا العمـل تخالف مسلمة عامة ترسخت فى التاريـخ المصرى الحـديث وهى أن محمد عـلى قد عمـد إلى الغدر والخديعة للتخلص من البكوات المماليك ، وهى الفكرة التى كان شيخ المؤرخين المصريين فى ذلك العصر ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، قد روج لها فى الجزء الرابع من كتابه المعروف « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ثم لقيت استجابة واسعة من سائر من أرخ لتلك الحقبة من المصريين أو غيرهم .

والفكرة الجديدة التى يطرحها الدكتور كفافى لا نستطيع أن نزعم أنها فكرة جديدة تماما ، فإن عددا من المؤرخين المصريين كانوا يؤمنون بصحتها منذ وقت قصير ، ربما يكون الجديد فى هذا العمل أن يخصص لتأكيد الفكرة ومعالجتها بشكل عقلانى ومقنع ، الأمر الذى يدعو إلى الترحيب بنشر هذا العمل .

وعلى الله قصد السبيل .

د . يونان لبيب رزق

أستاذ التاريخ الحديث ــ جامعة عين شمس

مقدمة

نقدم هذا العرض التاريخى متضمناً فترة من أعقد فترات تاريخ السياسة والحكم فى مصر ، نتعرض فيها لمحمد على وما استطاع أن يقوم به من حركات إصلاحية لأجل مصر ، ولما كنا نرى من وجهة نظرنا الشخصية أن المدخل الحتمى لخطة الاصلاح التى قام بها هذا الرجل هى ضرب المماليك والقضاء عليهم تماماً ، فقد كان لزاماً علينا أن نستعرض عصورهم المختلفة وما فعلوه بمصر وما قدموه لها سلباً أو إيجاباً .

ونطرح الحكم على الأحداث فى النهاية للقارىء لإنصاف من يستحق الإنصاف . ونأمل أن نكون قد قدمنا جرعة تاريخية محببة لقراء التاريخ ، وهو إسهام متواضع يراودنا أمل كبير أن يحوز القبول ، خاصة وقد حاولنا أن يخرج العرض

فى شكل بسيط بعيداً عن التعقيد يغلب عليه تقديم المعلومة من خلال السرد التاريخى وتداعى الأحداث ، مراعين تحرى الدقة قدر الإمكان ، من حيث أن أحداث التاريخ وإن كانت صريحة ومحددة تتحدث عن نفسها ، إلا أنها كثيراً ما يتم تناولها من جوانب مختلفة ومتعددة ، ولم نغفل ذلك ، فقد وضعنا أمام القارىء وقائع التاريخ كما هى بكل جوانبها وبلا رتوش تاركين للقارىء مهمة الحكم عليها تبعاً لاستيعابه لأحداث التاريخ .

ويطيب لى أن أقدم خالص الشكر إلى الاستاذ الدكتور يونان لتقديمه هذا العمل الذى أتمنى أن يحقق الغاية المرجوة منه .

والله الموفق .

د . حسين كفافى

القاهرة فى ٢٣ / ١٢ / ١٩٩١

مدخل :

نود فى البداية أن نلقى نظرة على أرجاء مصر قبل وصول محمد على إلى أرضها ، نظرة شاملة لستة قرون عاشتها مصر وتعايشت معها فى ظل دولة المماليك .

تلك هى نقطة البداية والانطلاق فى هذه السياحة التاريخية منذ أن اعتلى المماليك عرش مصر إلى أن أفل نجمهم وسلطانهم مروراً بما آل إليه حال البلاد وانتهاء بمولد عصر جديد لمصر بقيادة محمد على باعث نهضة مصر الحديثة .

البداية إذاً دولة السلاطين المماليك أو دولة البرين والبحرين ، كما أطلق عليها ، حيث امتد سلطانها وحكمها لإقليمين كبيرين هما سوريا والشام فى الشمال ومصر والحجاز فى الجنوب ، وبحرين عظيمين هما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر .

بدأت هذه الدولة فى كامل العنفوان والقوة وانتهت ضعيفة واهنة مصابة بالشيخوخة ، الأمر الذى يعنى أن هناك عوامل ومؤثرات خارجية وداخلية كان من شأنها أن تعمل على نهاية هذه الدولة بهذا الشكل .

ويمكن القول بأن العوامل الخارجية انحصرت بصفة عامة فى الحدث الخطير المتمثل فى الانقلاب التجارى العالمى الذى تم على

أيدى البرتغال والأسبان ــ على أثر سقوط الدولة العربية فى الأندلس مع مطلع القرن الخامس عشر ـ هذا الانقلاب الذى تحولت بواسطته التجارة العالمية بين الشرق والغرب من طريق البحر الأحمر ومصر والبحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، حول افريقيا ، فقد حرم هذا التحول التجارى مصر من عدم المرور بأراضيها مصدراً هاماً لتمويل الخزانة ، وبسببه لم تعد مصر سوقاً للتجارة العالمية ، ونتج عن هذا التحول التجارى أزمة اقتصادية عانت من جراءها مصر منذ أوائل ذلك القرن وحتى هذا العصر .

أما عن العوامل والمؤثرات الداخلية ، وهى التى تهمنا فى المقام الأول لتأثيرها المباشر على الشعب ، فهى تنحصر فى سياسة المماليك السيئة التى أدت فى النهاية إلى السقوط . سقوط متعدد الأنواع والأشكال ، سقوط فى كافة مظاهر ونواحى الحياة اجتماعية واقتصادية وزراعية .

وللتعرف على أسرار هذا السقوط سندخل قصر السلطان المملوكى فى قلعة صلاح الدين بالمقطم بقاهرة المعز أو على ضفاف النيل ، أو بقصر السلطان العثمانى المعروف بقصر « طوب كابى » (باللغة التركية والتى تعنى باللغة العربية) « الباب العالى » أو « القصر الصيفى » المعروف « بقصر يلدز » على ضفاف البوسفور وبشاطىء بحر مرمرة بالقسطنطينية ، حيث المؤامرات فى دهاليز وقاعات هذه القصور .

ولنتعرف على ما يدور فى الدواوين والجوامع والمساجد ، ونقترب من مجلس الصدر الأعظم وهو رئيس الوزراء ونقابل نواب الأقاليم ونظار الحسبة ، والمشايخ والأئمة والقضاة ، ووكلاء بيت

المال والمستوفين والاستدارية ، لنرى عن قرب الصورة الاجتماعية التى كان عليها المجتمع المصرى بما له وما عليه فى العصور الوسطى بداية بالقرن الثالث عشر الميلادى أى قبل ظهور « محمد على » على مسرح الاحداث بستة قرون ، حيث كانت مصر بشعبها وأرضها وكل ما عليها حقاً مباحاً للمماليك .

سنقرأ معاً كتب التاريخ ، وما سطره مؤرخو هذه العصور ، ففى هذه الحقبة توالى على مصر عدد كبير من السلاطين المماليك وتخللتها المؤامرات والانتفاضات والانقلابات والثورات الشعبية ، فكان المماليك أحيانا لا يبقوا على كرسى السلطنة فى مصر إلا عدة شهور لا تتجاوز العام الواحد ، مثل ما حدث للسلطان الكامل شعبان ، وقليل من السلاطين طالت مدة حكمهم بعض الشىء مثل السلطان الناصر محمد بن قلاوون والذى بالرغم من ذلك تخللت فترة حكمه انقلابات عديدة (ترك فيها كرسى الحكم وغادر البلاد) . وقد أخبرنا المؤرخ المصرى المقريزى ، الذى كثيراً ما أدان فترة حكم المماليك « ان هذا النظام كان يعتمد على الاقطاع الذى يتصف بالسلب والنهب واجمالاً كان حكم قرصنة » .

وكل هذه الأمور أدت إلى تفكك المجتمع المصرى وتخلفه ، خاصة بعد أن صار نظام البذل والبرطلة ــ أى الرشوة ــ يمثل المورد الأساسى والدخل الثابت لموظفى الدولة ، فالدولة خزينتها فارغة ، فلا مرتبات ولا مكافآت للموظفين ، وكانت الوظائف تشترى .

هكذا كان النظام الاجتماعى والاقتصادى ، أو فلنقل كانت الحياة الاجتماعية عموماً . لذا انعدم الأمن والأمان وانتشر قطاع الطرق فى كل قرية أو كفر أو نجع أو مدينة ، خصوصاً المدن التى تقع

متاخمة للصحراء ، وما أكثرها فى مصر .

أما عن حالة البلاد من الناحية الزراعية فقد كانت الدلتا معظمها مستنقعات من بقايا الفيضانات للسنين الماضية ، تغطيها الأحراش ، إذ كانت البلاد حينذاك لا يوجد بها جسور أو قناطر أو خزانات ، فكانت الفيضانات فى سنين تأتى ثائرة مدمرة لكل شىء وتقضى على كل شىء وكان الفيضان ينحسر عن ضحايا من الأطفال الرضع والشيوخ والنساء وكذا الحيوانات والماشية ، ناهيك عن الكلاب الضالة والثعالب والحيوانات المفترسة التى تهدد كل من نجا من آثار الفيضان . وحتى فى حالة انخفاضه كان المصريون دائماً فى قلق ، فانخفاض النيل يسبب قحطاً وجفافاً يؤثر على الزراعة والانتاج ، فكانت المجاعات تنتشر وتسود البلاد . وهكذا كان الناس مهددين فى كلتا الحالتين سواء ارتفع النيل أم انخفض .

ولننظر إلى ما يقوله المؤرخ « الصفدى » فى زمن السلطان الناصر قلاوون ، فقد كانت سمعته السيئة تملأ الآفاق ، هذا السلطان عندما تولى الأمر بالبلاد إختار نائباً له عن حلب يدعى « قراسنقر » الذى عين بدوره أحد اليهود فى وظيفة مستوفى الأوقاف وهى من الوظائف التى تتمكن من رقاب الناس من خلال ما يؤخذ من الممولين سواء بحق أو بغير حق وبطرق عديدة من وسائل الابتزاز . وقد وصل هذا السلوك حتى إلى الفقهاء ورجال وأهل الأوقاف ، فما كان منهم إلا أنهم شكوه بدورهم للنائب « قراسنقر » فاستجاب لهم وعزله عن منصبه . أما اليهودى فلم يستجب لهذا العزل ، بل قام بالسعى والبذل والرشوة ونجح فى العودة مرة ثانية إلى منصبه حيث عاملهم أشد من المرة الأولى وزاد من ابتزازه ،

فشكاه أهل الأوقاف مرة ثانية فتم عزله ، ولكن اليهودى بدوره لم يستكن وواصل السعى ورجع إلى وظيفته للمرة الثالثة . وكانت مهادنة نائب حلب لموظف مستوى الأوقاف لا تأتى من فراغ وكان هذا فى الحقيقة يقابله علاقة حميمة ووطيدة بين « قراسنقر » والسلطان منصور قلاوون ، فإن تعيين « قراسنقر » هذا فى وظيفة نائباً للسلطان على حلب جاء أيضاً بالرشوة . وهذه العلاقة المشبوهة التى تتسم بالريبة وسوء السمعة لا تفسير لها سوى أن السلطان كان له نصيبٌ من الرشاوى التى ينالها النائب .

وقد يقول قائل إن آراء بعض المؤرخين كانت متحيزة مثل المقريزى الذى يعتبر مصرياً بحكم تركيبه الاجتماعى وكان له موقف مخالف ومناهض لنظام المماليك . ولكننا نستشهد برأى « ابن تغرى بردى » حيث يلخص لنا حال البلاد فترة حياته إبان حكم سلاطين المماليك وذلك فى مجال ما يعيبه على واقعة السلطان المؤيد شيخ وهى توليته نيابة الاسكندرية فى صفر عام ٨١٩ هـ صيف ١٤١٦ م « لقطلوبغا » أحد الأمراء المماليك عن طريق الهدايا العينية والنقدية قائلاً : « وصار لا يترقى فى هذه الدولة إلا من يبذل المال ولو كان من أوباش الناس أو السولشره المماليك فى جمع المال » .

وشهادة « ابن تغرى بردى » هذه لها أهميتها إذ أنه كان بالدرجة الأولى مملوكاً وهذا بطبيعة الحال يجعله منحازاً للمماليك لارتباط المصالح وتشابكها وتعقدها علاوة على أواصر المصاهرة والدم ، فهو عموماً يحسب على نظام المماليك ومن نسيجه وضمن تكوينه الطبيعى والاجتماعى والاقتصادى دماً ولحماً وعظاماً حتى النخاع .

ومع الوقت امتد الفساد والخلل الـذى كان يعم البـلاد إلى النظام نفسه ، أى إلى المؤسسة العسكرية بتعبير العصر الحديث ، التى يقوم عليها أساس الحكم فى البلاد ، فأصبح النظام يعتمد على مماليك من الذين لا هم لهم إلا الرشاوى وجمع المال . وانحدر نظام المؤسسة العسكرية الذى كان يعتمد على المماليك كعصب له إلى أن وصـل إلى الحضيض على أنـه بالـرغم من الفساد الـذى كان يعم البلاد ، فقد كانت دولة المماليك ولعـدة قرون هى حـامية ديـار الإسلام ضد الحملات الصليبية التى تعرضت لها البـلاد سواء فى مصر أو الشام . فقد أفرز هذا العصر أبطال وشخصيات عـظيمة صمدت شامخة ضد الغزو الصليبى وحفرت أسماءها فى صفحات التـاريخ فمن ينسى الـظاهـر بيبـرس او السلطان ابن قـلاوون أو السلطان بـرقون أو السلطان قـايتباى . ولكن وكـما قدم لنـا نظام المماليك هذه الشخصيات العظيمة ، إلا أن النظام أفسح المجال مع الوقت الى تبلور السلبيات وظهور عصبيات مختلفـة مراكـز قوى ، حيث أدت سلبيات النظام إلى أن طفـا على سـطح المجتمع مبـدأ « الحكم للأقوى » وأصبح مبدءاً راسخا فى حركة السياسة والحكم فى مصر ، فحاولت كل عصبية أن تفرض إرادتها لتولية زعيمها بالقوة فكثرت الدسائس والمؤامرات والمنازعات وبدا جلياً أن النظام يحمل فى طياته بذور فنائه .

كل هذا يحدث وهناك عملاق بدأ يفرض نفسه على ساحـة المجتمع الدولى لم تنتبه له دولة المماليك بل لم يسترع انتباه حكامها فى بادىء الأمر بزوغ نجم الدولة العثمانية التى سرعان ما ابتلعت آسيا الصغرى والقسطنطينية واقتربت حدودها من حدود سلطنة المماليك فى أعالى بلاد الشام مما أوجد نقطة احتكاك بين الدولتين . ثم تلى

ذلك وأعقبه خروج العثمانين إلى البحر المتوسط مما أوجد نقطة أخرى للاحتكاك بين الدولتين بسبب سيطرة المماليك النسبية حيئذ على مياه البحر الأبيض المتوسط .

وبات مؤكداً أن عرش السلاطين/ المماليك فى طريقه إلى الدولة العثمانية التى كانت فى وضع يسمح لها بالتهام مُلك دولة البرين والبحرين .

وإلى مزيد من الشرح والتفصيل لاستعراض هذه الحقبة الفريدة من تاريخ مصر .

قصة المماليك

١٢٥٠ = ١٨١١

« وصار لا يترقى فى هذه الدولة إلا من يبذل المال ولو كان من أوباش الناس أو السوق ... لشره المماليك فى جمع المال »

ابن تغرى بردى

قصة المماليك

١٢٥٠ـ ١٨١١

فى هذا الفصل نستعرض معاً قصة المماليك ، ونشأة هذا النظام وتطوره عبر القرون الماضية ، وكيف كان يجلب هؤلاء المماليك من المناطق المختلفة من العالم إذْ كانت تجارة الرقيق رابحة فى العصور الوسطى ، ودور المماليك فى الحياة العامة وأيضاً نظام الحكم وحال الشعب والولاة ، وكذلك دور المماليك وجهودهم فى حماية ديار الاسلام ، ثم تحولّ هذا الدور إلى التحكم والقبض على مجريات الأمور وكافة نواحى الحياة (اجتماعية . دينية . اقتصادية . . . الخ) حتى أصبحوا يشكلون اكبر مركز من مراكز القوى التى أثرت على الشعب المصرى بثرواته وإمكانياته البشرية فى هذا الوقت ، بل وتعدى الأمر ذلك إلى الحد الذى حكموا فيه باسمهم وسيطروا على أقدار البلاد حيث جمعوا فى أيديهم مقاليد الحكم والسيادة وأصبحوا بنظامهم هذا يشكلون المؤسسة العسكرية التى تحكم بالفعل . وأصبح هذا النظام مع الوقت نظاماً مستقراً ضمن المجتمع،لستة قرون يحكم مصر بيد من حديد .

بدأ هذا النظام مع نهاية حكم الدولة العباسية بمجموعات صغيرة فى قصر الخليفة ضمن حاشيته بغرض حماية خصوصياته ، إذ كانوا أهل ثقة ، فليس لهم عصبية يعملون لحسابها . فقد كانت المؤامرات تسود المناخ العام للحكم خلال دهاليز وأروقة القصر ، فما زالت جيوب الأمويين تعمل وتدبر ، فالدولة الأموية فى الأندلس فتية قوية شبحها مازال يهدد الدولة العباسية ولها عملاء وجواسيس فى كل مكان ، والأعاجم والفرس فى المشرق يدبرون ، والعرب لهم مطالبهم فى الحكم ، وأيضاً الهاشميون وأواصر القربى التى تربطهم بالعباسيين يكيدون ويعتقدون أن لهم نصيباً فى الخلافة . ومع هذا الجو الزاخر بالمؤامرات والدس والكيد بدأت تزداد أهمية المماليك ويتعاظم دورهم ووصلوا إلى أعلى المراتب . فكان الخليفة يعتمد على تزويد ودعم البلاط بحاشيته من شباب المماليك ، وكان الولاة فى الولايات المختلفة والنواب يقلدون الخليفة العباسى بدعم بلاطهم بحرس خاص من المماليك رمز الأبهة والعظمة ، ومع الوقت أصبحت هذه الحراسات ميلشيات ، وتطورت المليشيات إلى جيوش صغيرة ، إلى أن جاء الأيوبيون فاستخدم الناصر صلاح الدين الأيوبى المماليك فى الحروب بأعداد كبيرة ، فقد اشترى إثنى عشر ألف من المماليك الجراكسة والأتراك دربهم على كل فنون القتال والفنون الحربية الأخرى (١) . وصاروا أشد الجنود بأساً واقداماً وشجاعة وبطشاً . واستمر هذا النظام فى الدولة الايوبية إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب فى منتصف القرن الثالث عشر ، ووضع المقاييس لاختيار المماليك ، وجعل من جزيرة الروضة المكان

---

(١) المماليك فى مصر ـ أنور زقلمة ـ مطابع المجلة الجديدة (ص ١٤) .

المخصص لتدريب هؤلاء المماليك . وبعد حكم الأيوبيين آلت مصر إلى سيطرة الموالى من هؤلاء المماليك وتصرفوا فى أحوال الدولة على أهوائهم ثم لم يلبثوا أن اختاروا السلاطين من بينهم ، واستمروا فى شراء مزيد من المماليك ، فتضاعف عددهم وتمت لهم العصبية التى ساعدت على تنفيذ أحكامهم والتغلب على سواهم ، والنظام بطبيعته يقوم بحماية نفسه بقوة عسكرية يتم اختيارها من المماليك الجدد من الشباب الغر من سوق النخاسين من مناطق أواسط آسيا ومناطق أخرى متفرقة ، حيث يباع هؤلاء الأطفال بيع الأرقاء من أهلهم لظروف فقر أو قحط أو لظروف اعتداء وإغارة قبائل على قبائل أخرى تستحل معه كل ما تحصل عليه من مكاسب من القبائل المهزومة[1] . وكانت مقاييس الاختيار تخضع لمعايير ومواصفات على رأسها حداثة السن والذكاء والملاحة وقوة النظر وحسن التصرف وقبل كل شىء اللياقة الجسمانية المتكاملة وقوة التحمل الفائقة والعزيمة والطموح . وكان يتسم فى هؤلاء الأطفال الولاء والأمانة ، لأنهم سيكونوا مسئولين عن حماية النظام بما فيه الحاكم سواء كان خليفة أو سلطاناً أو والياً ، إذا أنهم أدوات حماية النظام من خلال تواجدهم فى السلطة . فهم ينتقلون من والى هذا القصر أو ذاك وقد يقبضون على زمامه دون أن تربطهم به صلة أو وطن أو أواصر قرابه . وقد كان المكلفون من قبل السلطان لاختيار المماليك الشبان الجدد يمتازون بالفراسة والدقة فى اختيار هؤلاء الأطفال من خلال تجار الرقيق الذين كانوا يجوبون مراكز وأسواق النخاسة العالمية فى أواسط آسيا وتخوم القوقاز ومناطق عديدة أخرى من العالم القديم وكانوا

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٥) و (١٨) .

يمضون الأيام والشهور فى معاينة البضاعة من أطفال وفتيات وتطبيق قواعد القياس لاختيار الأحسن . وهكذا كانت هذه الاختبارات والكشف الطبى والرياضى وكشف الهيئة مثل تلك التى تجرى حالياً على المتقدمين للكليات العسكرية .

وعندما يتم شراء مجموعة من المماليك الصغار ، يدفعون إلى معسكرات التدريب النائية أو القلاع أو الأبراج فى استعراضات عسكرية ، وكان يتم ذلك فى ظل نظام عسكرى دقيق وبأصول تدريب وأوامر صارمة تحكم العمل فى هذه المراكز أو إن شئنا أن نقول هذه المعاهد أو الكليات أو الاكاديميات بلغة العصر . وهنا كان التدريب يتم طبقاً لأصول ومناهج الفروسية فى العصور الوسطى من ركوب الخيل بالطرق المختلفة وإتقان فنون القتال بمختلف أنواع الأسلحة . وكان على كل طالب أن يتفوق فى جميع التدريبات قتالية كانت أو بدنية بلا استثناء ، وحينما تمضى المجموعة فى التدريب وقتاً كافياً كانت مناورات حربية هى أقرب إلى القتال الحقيقى سواء بعربات الحرب أو الخيول أو على الأقدام ، حتى أن كثيراً ما كان يخرج بعض هؤلاء المماليك الصغار (الطلبة) من هذه المناورات بجروح وإصابات . وكانوا يمضون فى هذه المناورات أياماً متتالية حتى يتعودوا على حياة التقشف وتتعود أجسامهم الجوع والعطش . وكانت تدرس لهم اللغة العربية وعلوم الدين والقرآن والحديث الشريف والفقه الإسلامى والعقيدة والسيرة النبوية ، وتتخلل اليوم فترات راحة وأوقات للطعام ، وفى رمضان كانوا يصومون ليمارسوا شعائر الدين الإسلامى فيشبوا على الإسلام فى حب وإخاء ، وكانوا يلقنون آناء الليل وأطراف النهار ما يغرس فى نفوسهم أهمية الولاء



صوره لجندى من مماليك مصر (المصرليه)

المرجع .ــ شريف برعى ، **الازياء الشرقيه** القاهره . دار نشر الزيتونة ١٩٨٨ ص ٥٧

Source Sherf Borae, Orental Costumes. Caro : Zetouna 1988, p. 49

لأربابهم وأوليائهم ليشبوا على الطاعة والولاء وحب ولاتهم وسلاطينهم ، وكذلك التعود على الانضباط فى الحرب والسلم ، وهذا ما يسمى بلغة العسكريين اليوم الضبط والربط والالتزام وأيضا الولاء لقادتهم وهو ما يسمى فى لغة السياسة أهل الثقة .

وهكذا حتى جاءت الحملات الصليبية المتتالية وكانت تتكسر على صخرة فيالق جند الاسلام المدافعين من المماليك ، فانبهرت أوربا بهذه النظم العسكرية الصارمة فى التعليم والتدريب وأخلاق الفروسية ، الأمر الذى جعل ملوك أوربا يقومون بنقل هذه النظم والتقاليد إلى بلادهم . واستمر السلاطين المماليك من ناحيتهم فى تطوير هذا النظام على مر الأيام . من هنا نرى أن النظم العسكرية فى كلية « سانت هرست » العسكرية البريطانية أو كلية « وست بوينت » العسكرية الأمريكية ما هى إلا تقليد لنظم المماليك فى العصور الوسطى وتطوير لها . . . . وعند التخرج من هذه المراكز كان المماليك أصحاب الكفاءة العالية والتفوق فى العلوم المختلفة يلحقون بحاشية السلطان أو بحرس السلطان الخاص Royal Mamlouk' أو ما يطلق عليه الحرس السلطانى أو الحرس المملوكى ، أو الحرس الملكى حالياً . وكانت تدفع مبالغ باهظة ثمنا للملوك الواحد . أما المماليك الأقل كفاءة فيقون بمليشيات المماليك الأمراء فى المناطق المختلفة للسلطنة ، ومن ثم كان الحرس السلطانى يزود بأرقى المماليك تدريباً وعلماً وهيئة وكانت قمة الأبهة تظهر فى ركاب السلطان فى الأعياد والمواسم الدينية والرسمية . وهذه المواكب تلقي الرعب فى قلوب الشعب المسكين الذى يمضى فى طريقه مبهوراً من هذه الأبهة حزيناً على حاله وما وصل اليه . من

ناحية أخرى يمكن القول بأن التفوق العسكرى والطموح والولاء وقوة العزيمة شكلت العناصر الأساسية في التدريج للمناصب العليا ، حيث كان النظام فى أول أمره صارماً حازماً يتسم بالضبط والربط ويخضع لمتغيرات محلية وبيئية وخارجية أحياناً نظراً لكثرة الاعتداء على بلاد الاسلام وحدودها جعلته نظاماً قوياً .

ومع مرور الزمن خرج نظام المماليك عن واجباته القديمة (وهى حماية الملك أو السلطان وحماية النظام وحماية أراضى الدولة وحدودها وحماية ديار الإسلام) وتحول إلى مجرد مظهر وحب للظهور والخيلاء ، وبذلك انحدر النظام القوى من البطولة إلى البطالة ، وتدهور نظام المماليك ووصل الحال بهم إلى نظام تنابلة السلطان . ولذلك يعتبر عصر المماليك بحق هو عصر المتناقضات ، فقد وصفه المؤ رخون بعديد من الصفات والمظاهر ، فهو عصر الظلام وعصر الفوضى وعصر النظم المحلية وحكم الإقطاع وعصر الفروسية والشجاعة ، وغير ذلك من الصفات والمظاهر التى جعلت تاريخ هذا العصر من أغرب حلقات تاريخ مصر وأولاها بالبحث ، فهو بالفعل عصر المتناقضات ؛ ففى هذا العصر دافعت مصر ، تحت قيادة المماليك الأبطال حينئذ ، عن الإسلام وديار الإسلام ، وأيضاً تحت قيادة المماليك تفاعلت مصر مع أوروبا فى الحرب والتجارة والثقافة وكانت مصر مؤ ثرة فى تاريخ العالم ، ولكن تحت قيادتهم أيضاً تدهور الاقتصاد المصرى وتضور المصرى فقراً وجوعاً .

ومهما قيل فى شأن هذا النظام من مدح أو قدح ، وأيا كانت نشأة هذا النظام وتطوره ، كما استعرضناه بسرعة ، فإن ما يهمنا هنا فى هذه العجالة التاريخية هو استحواذ هؤلاء المماليك على مقاليد

الحكم والتصرف فى أحوال الشعب على أهوائهم فبيدهم التجارة الدولية والداخلية وهم الذين يملكون الضياع والقلاع ، فأصبحت العلاقة بين المماليك وبين الشعب علاقة الحاكم والمالك بالمغلوب على أمره ، أو علاقة الأسياد بالعبيد ، وكان كل ما يعنى هؤلاء السادة الحرب والقتال والتفوق والعيش فى الأبهة والبذخ والترف ، وما يتبعه ذلك من الحصول على الأموال بأى طريقة ولو كان ذلك بالابتزاز ومن دماء الشعب ، وبلغوا فى ذلك حد التوحش والهمجية ، وأصبح حكمهم مع الوقت سلسلة متصلة من الفوضى والاضطراب والمكائد وذلك للمحافظة على نفوذهم وسلطتهم وتعزيز المطامع الشخصية والاحتفاظ بالكرسى أو الوظائف بلغة عصرنا هذا ، حتى لو وصل بهم ذلك إلى سفك الدماء وإزهاق الأرواح[1] . وهكذا فالصور للوصول إلى الحكم عديدة ومختلفة الأشكال ولكن وإن كان من شأنها القضاء على الحكم السابق ، إلا أنه من شأنها أيضا عدم الاستقرار فى البلاد والتى تصبح معه الدولة كمجتمع الغاب والذى بدوره يؤدى إلى القتل والفوضى والفساد والاضطرابات ، طالما تحكم البلاد فئة لا تنظر الا للمال والسيطرة على الحكم بشتى الطرق.

وقد نشأت فى هذا المناخ الفاسد الذى اجتاح البلاد طوائف كثيرة من صغار الموظفين استمدوا من السلطة وجبروتها وهيمنة رجالها حق التصرف فى نفوس الشعب وتركهم للتهلكة وقد عانت مصر من ذلك الكثير . ومن أين لها أن تسترد صحتها وشبابها وقوتها ، وقد أطبق عليها أولئك الألوف المؤلفة من المماليك خلال

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٧) .

ستة قرون كاملة ، والذى أخذ عدة أشكال خلال ثلاث مراحل وهى على الترتيب :

المرحلة الأولى : المماليك البحرية من سنة ١٢٥٠م إلى سنة ١٣٨٥ميلادية

المرحلة الثانية : المماليك البرجية من سنة ١٣٨٥م إلى سنة ١٥١٧ميلادية

المرحلة الثالثة : المماليك البكوات من سنة ١٥١٧م إلى سنة ١٨١١ميلادية

وسنبدأ بالقاء الضوء على كل من هذه المراحل الثلاث[1] .

أولاً : عصر المماليك البحرية

وضع أساس هذا العصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد سموا بالمماليك البحرية نسبة لبحر النيل المحيط بجزيرة الروضة حيث كانت جزيرة الروضة مركزاً لتدريب المماليك حال وصولهم من أوطانهم المختلفة .

واستمر حكم هذه الطبقة حوالى قرن وثلث قرن من الزمان ، ومعظم سلاطين هذه المرحلة حكموا باسم سلاطين من الأطفال كأوصياء عليهم ، فقد تولى قلاوون الملك بصفته وصياً على ابن بيبرس « سيف الدين شلامس » ولم يلبث أن خلعه من الملك واستولى على العرش لنفسه وصار الحكم فى اسرته لسنين طويلة . كما تولى الأمير « كتبغا » الحكم بصفته وصياً على السلطان الطفل

---

(١) المماليك فى مصر ــ أنور زقلمة ــ مطابع المجلة الجديدة (ص ٢٠) .

« لاجين » ثم استولى على الحكم لنفسه ، وهكذا معظم حكام هذه الفترة . كانت الوراثة تستمر فيهم من وقت لآخر مما يُثبت دعامة الحكم ولم تكن مطمعاً لسفك الدماء من كل طامع فى السلطة والحكم والملك . وقد كان سلاطين هذه الفترة بناة عظماء ، فها هى القاهرة تشهد بذلك حيث المساجد الكبيرة ومآذنها العديدة التى تناطح السحاب ، فانظر مثلاً إلى جامع السلطان قلاوون والناصر بن قلاوون والسلطان حسن وغيرهم ، فقد وضع السلطان لاجين نظاما بأن جعل أرض مصر أربعة وعشرين قيراطاً اختص بأربعة وجعل للجند عشرة وللأمراء عشرة ، فكان الأمراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الأجناد فلا يصل الأجناد منها شيئاً . ولما تملك الملك الناصر بن قلاوون نراه يطر على البلاد ويجعل لخاصته عدة نواح بلغت عشرة قراريط من الأقاليم (أى عشرة أجزاء من أربعة وعشرين جزءاً من مساحة مصر) وصارت اقطاعات الأمراء والأجناد وغيرهم أربعة عشرة قيراطاً وبلغت عدة الجيوش أربعة وعشرين ألف فارس لهم تقاليدهم الخاصة بهم من واقع نظامهم الصارم فى تدريبهم وقلاعهم ومعسكراتهم ولثقافتهم وعلومهم التى يحصلونها أثناء دراستهم فك جزيرتهم[1]

من هذه القدرة العسكرية والنظام الذى يحكمها قدر للماليك البحرية أن يقوموا بحماية ديار الاسلام ضد الغزوات المتتالية بداية بعصر السلطان الناصر قلاوون حيث كانت المؤسسة العسكرية فى

---

(١) على مبارك ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ١٩٦٩ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٠) [ص ١٣٨]

أول عهدها تركز السلطة كلها فى يد السلطان ، وهذا السلطان كمثال للمماليك البحرية يؤكد عظمة هذه المرحلة بحكامها فى مجالات عديدة . فمثلاً فى مجال العمارة والتشييد والعمران امتدت القاهرة وعمرت جهة الحسينية وباب اللوق وانتشرت البساتين وأماكن التنزه الكثيرة وكانت الميادين تخصص للتدريبات والمباريات مثل ميدان النشاب والميدان الأخضر وميدان السيف وميدان الرميلة الشهير الذى يقع أمام قلعة صلاح الدين وكانت هذه الميادين مجهزة المصاطب التى تشبه المدرجات الآن ، وذلك لإقامة الاستعراضات فى المناسبات والأعياد(١) . وكانت ميادين سباقات الفرسان مجهزة بالأعمدة الرخامية التى تحدد مواقع بداية السابق ونهايته ، وهكذا كان النظام والترتيب فى كل شىء بالمماليك وللمماليك وكان الناصر قلاوون يهتم بالمماليك ويعتنى بهم عناية زائدة فكان يخرج إلى الرحبة وقت حضور الطعام للمماليك ويشاركهم طعامهم ويختبر جودته وإن وجد فيه عيباً اشتد على المشرف والطباخين والاستدارية ونهرهم وأنزل بهم العقاب ، وكان يقول : « كل الملوك عملوا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار وأنا عمرت أسواراً وشيدت حصوناً مانعة لى ولأولادى المسلمين . » وهكذا كان حال البلاد إلى أن انقرضت دولة ابن قلاوون وبدأت هيبة سلاطين المماليك البحرية فى التدهور مع الوقت لتفسح المجال لعصر آخر ومرحلة أخرى من مراحل حكم المماليك . هى مرحلة عصر المماليك البرجية .

ثانياً : عصر المماليك البرجية .

بدأت هذه المرحلة من مراحل حكم المماليك عام ١٣٨٥ م

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٤١) و (ص ١٤٤) .

انتهت بقدوم جحافل الجيش العثمانى ومقتل طومان باى . وقد سميت هذه المرحلة « بالبرجية » لأن مراكز تدريب المماليك كانت فى الأبراج النائية والقلاع ، حيث كان يتم تدريب وتعليم الشبان المماليك فى هذه المعسكرات ذات الأبراج . وقد صار إليهم الحكم حقاً . فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم ، على الرغم من أنه لم ينل مصر من هذا التغيير أى نفع[1] .

وفى هذه المرحلة بدأت قبضة السلاطين المماليك على زمام الأمور وبدأت تتسرب السلطة إلى يد الأمراء المماليك ، فكان لكل أمير من أمراء المماليك الجيش الخاص به (أو المليشيات الخاصة به بلغة العصر) وكان لكل جيش من جيوش الأمراء ملابسه وزيه الخاص به وأيضاً علاماته وأعلامه . وعلى كل كان مماليك هذه المرحلة ومن قبلهم مماليك البحرية أرقى أخلاقاً وأفضل سياسة من مماليك المرحلة الثالثة (المماليك البكوات) . وقد قام مماليك المرحلة الثانية (البرجية) بالبناء والتشييد والعمران مثل السلطان (برقوق) والمؤيد شيخ والأشرف قايتباى . وكانت عمارتهم فخراً للقاهرة على مدن العالم ، ويمكن القول بأن كل ما بنى فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ما هو إلا تقليد ومحاكاة لهذه العمائر ، وكان لسلاطين هذه المرحلة اهتمام بالغ بأمر الجنود المماليك فكانت مرتباتهم أعلى مُرتبات فى الدولة بما يكفل لهم رغد العيش ، كذلك مرتبات الأمراء فكان يصل مرتب الأمير عشرين ألف دينار ، يخصص منها الثلث لنفسه والثلثان لمماليكه ، وكانت توزع أنصبة اللحم والخبز وعليق الخيول والدواء ، وكانت توزع للدرجات

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١١١) .

الأعلى أنصبة من السكر والشمع والزيت والكسوة كل عام وفى الأعياد ورمضان كانت توزع الأضحيات والحلوى والسكر . وإذا رزق منهم الواحد بطفل ذكر منح الهبات من الدنانير واللحم ، وقد كانت الهبات تمنح فى عهد سلاطين هذه المرحلة لطوائف أخرى غير العسكر وهم أصحاب الأقلام والقضاة والعلماء والخطباء ورجال الدين ممن كانوا ينعمون برضاء السلطان والنظام والمؤسسة العسكرية . ومع الوقت تحلل هذا النظام وتفشت الرشاوى وأصبح المناخ العام للمجتمع يتسم بالتنافر والخلافات المستمرة ، واندلعت الحروب الأهليه التى كانت تسفر عن الخراب والدمار فى كل أرجاء البلاد ، واستمر ذلك حتى عهد السلطان الناصر فرج ، عندما أصبح المماليك من أراذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً ، وأشحهم نفوساً وأجهلهم بأمر الدنيا واكثرهم إعراضا عن الدين . ومع عام ١٥١٨ وموت السلطان الغورى ومن بعده السلطان « طومان باى » الذى قتل بواسطة السلطان سليم آل عثمان ، بدأت مرحلة ثالثة من حكم المماليك .

ثالثاً عصر المماليك البكوات :

هو عصر المماليك من خلال الحكم العثمانى . وأغلب المؤرخين كانوا لا يعتبرون عصر المماليك البكوات ضمن عصور المماليك ، وهذا يخالف حقيقة الحكم الفعلى ، إذ كان المماليك البكوات هم الطبقة الحاكمة دون غيرهم ، والذى حدث بالفعل أنه بعد استطاعة العثمانيين دخول البلاد تغير لقب أو اسم «السلطان» إلى « شيخ البلد » أى أن ما حدث لا يتعدى حدود تغيير الأسماء والألقاب ، ولم يأبه المماليك كثيراً واكتفوا بالحكم الفعلى دون لقب

السيادة . وخلال هذه المرحلة وكلما كان يتقلص نفوذ الباب العالى وهيبته من وقت لآخر كان يقل نفوذ ولاته فى مصر ، ويزداد نفـوذ شيخ البلد ومجموعة المماليك البكوات . ويبقى المماليك فى العصر العثمانى كما كانوا من أجيال عديدة ، وعلى عهـدهم لم يغيروا من سلوكياتهم سلبية كانت أو ايجابية وكان مماليك هـذه المرحلة كثيـراً ما يتنازعون ويتقاتلون من أجل لقب شيخ البلد ، وكان الوالى يغذى هذه المنازعات من وراء السلطان ، وكان يعقب هذه الحروب وهذا القتال هياج يعم البلاد . وكان لشيخ البلد هيبة وسطوة ينالها من مجموع البكوات المماليك الذين يعضدونه[1] .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، وحين كان الباب العالى مشغولاً بحروبه مع الإمبراطورية الروسية ، استطاع شيخ البلد « على بك الكبير » أن يجمع حوله الانكشاريه ، التى كانت تبلغ قوتها ستة آلاف مقاتل ، وقام بطرد الوالى العثمانى إلى القسطنطينية وأعلن استقلاله عن الدولة العثمانية ، ثم توجه إلى الشام وضمها إلى أملاك مصر ، وكذلك سواحل البحر الأحمر فى الجزيرة العربية واعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة ومنحـه لقب سلطان . وبعد أن حكم حكماً رشيداً زاهراً قتل غيلة فى سوريا .

وكان نظام الحكم فى مصر خلال حكم العثمانيين يقضى بأن السلطة مقسمه إلى أجزاء ، وقد جعل كل جزء منها وقفاً على طائفة من طوائف المماليك وفرقهم ، وكان ذلك يتم على وجه بغيض اختل معه التوازن بين هذه القوى . أما شئون الحكومة فقد عهد بها إلى ديوان اعضاؤه من كبار المماليك وزعمائهم وأما الإدارة المحلية فقد

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٤٦) وما بعدها .



صورة لأحد جنود الانكشارية ، وكلمه «انكشارى» تعنى فى اللغة التركية «الجندى الجديد»

المرجع ــ شريف برعى ، **الازياء الشرقيه** القاهرة ــ
دار نشر الزيتونة ١٩٨٨ ص ٥٣

Source - Sherf Borae, Orental costumes. Caro :
Zetouna 1988, p. 49.

أنيطت بأربعة وعشرين بيكاً منهم ، هم رؤوساء تلك الفرق والطوائف وزعماءها . وكان لهؤلاء أن يحصلوا الضرائب والجزية ، فيأخذ الديوان منها حصة تعادل الجزية السنوية التى يجب رفعها إلى الباب العالى . وكان الوالى المعين من قبل السلطان يمثله فيها لدى أهلها وزعماءها وتنحصر مهمته فى إبلاغ الأوامر التى يتلقاها من السلطان ، وإيصال مبلغ الجزية إلى السلطان وحماية البلاد من الغزو الأجنبى والمحافظة على التوازن بين زعماء المماليك . وفى هذا المجال يجب أن نوضح حقيقة تاريخية أنه لم يُعينَّ وال على مصر من قبل المصريين ، بل كان الولاة المعينون فى مصر من كل جنسيات الامبراطورية العثمانية فكان منهم الأتراك والألبان والشوام وفى نفس الوقت لم يُعَينَّ مصرى واليا على أى ولاية عثمانية من ولايات الإمبراطورية المترامية الأطراف !!! فكأن المصريين فقط لفلاحة الأرض .

ونعود مرة ثانية إلى نظام الحكم فى ولاية مصر حيث كانت الفرق العسكرية العديدة والتابعة للسلطان مثل الانكشارية المشهورة أو الاسباهية (وهم من الشوام بقيادة رؤساء يسمون بالوجاقلية .) كل همهم هو تأييد الباب العالى والزود عن هيبته واختصاصاته . ومع تعود هؤلاء على الرغبة فى الحياة فى مصر المحروسة وأخذهم بحياة الترف والنعيم ، ذهبت منهم البسالة ونشأوا على كراهية المغامرة وتحولت الإنشكارية مثلاً من أولى بأس وشدة إلى فئة لاهم لها إلا جمع المال بأى طريقة . وكان من آثار ذلك أن احتفظ المماليك بعصبيتهم ولم يفقدوا شيئاً من هيبتهم حتى أصبح أعضاء الديوان من القوة بحيث يستطيعون رفض أوامر الباشا والامساك عن المصادقة عليها ،

بشرط توافر العلة والمبرر ، بل كان فى قـدرتهم العمل عـلى إبعاده وعزله من منصبه . وتضاءلت مع الأيام هيمنة الحكومة المركزية فى استـانبول « البـاب العالى » عـلى مصر وأصـبحت محدودة للغـاية لا تتعدى الشكل وأصبح السلطان فى حالة يرثى لها .

تلك هى قضية المماليك بوجه عام ، وحتى نقترب من نطقـة بحثنا نتعرض فى الفصل القادم للمماليك فى فترة محددة تعد من وجهة نظرنا هى بداية النهاية لعصر المماليك ونقصد بهذه الفترة « المماليك أيام العثمانية » . حيث بدأ الصدام بين الجيوش العثمانية وجيوش أمراء المماليك مما كان له اكبر الأثر على خراب ودمار البلاد من خلال سلسلة طويلة وشاقة من الحروب بين الفئتين آتت على موارد مصر وأدت إلى انقسامات خطيرة فى مجتمعها .

هـذه الفترة تعتبـر من الفترات التـاريخية الثـريـة بـأحـداثهـا وأشخاصها ونتائجها الأمر الذى يحتم التعرض لها بالتفصيل .

قصة صراع المماليك
أيام الدولة العثمانية

« أثنـاء حكم المماليـك لقرون ، لم تنقطع الحروب الأهليـة المتعاقبـة ، التى إتحذت من مصر وشعبها مسرحاً لهم مما أثقل كـاهل الشعب ، فكـانت انـواع الضرائب والاتـاوات إثنينى وثلاثين نوعاً فـرضت على كـل الناس فمنهـا ما هـو على الصنـاع والتجـار والبغايا ، وأولاد الهـوى وحتى على الذبائح وكذلـك على الفـلاحين وعـلى عـديـد مـن الشـرائـح المختلفـة والقطاعات العديد من الشعب »

الخطط التوفيقية

قصة المماليك أيام الدولة العثمانية
١٥١٨ ـ ١٨١١

زالت دولة المماليك عام ١٥١٨ م الموافق لعام ٩٢٣ هـ بموت السلطان «الغورى» ومن بعده السلطان «طومان باى» الشهير الذى قتل كأعظم ما يموت الأبطال دفاعاً عن الوطن والعرض بمنطق المماليك فى ذلك العصر ـ فهم أصحاب البلاد الشرعيون خلال أربعمائة عام مضت ، وبموته سيطرت الدولة العثمانية على مصر[١] .

وكانت مصر هى درة ديار الاسلام فقد كانت على جانب من الاتساع والعمارة ، حيث كانت عاصمة مملكة عظيمة تمتد عبر بلاد الشام حتى جبال طوروس شمالاً وشرقاً عبر البحر الأحمر على الأراضى الحجازية بما فيها الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة ، كما تمتد على الرقعة الإفريقية جنوباً وعلى سواحل البحر الأحمر حتى مصوع وسواكن ، وفى الغرب حتى برقة على البحر الأبيض المتوسط ، فكانت مصر تسيطر على كل التجارة العابرة أو الترانزيت

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، الجزء الأول ، مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٨٠ ، ص ص : ١٤٦ ، ١٤٧ .

(بتعبير العصر الحديث) من الشرق حتى أوروبا من التوابل والبخور والحرير . وكانت مصر تحصل على مكاسب عظيمة من مرور هذه التجارة .

وما أن زالت هذه الميزة الاقتصادية باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحويل التجارة من الشرق إلى الغرب حول إفريقيا ، حتى توالت على البلاد الكوارث والمحن والاضطرابات ، وأورثها ذلك نقصاً فى عزها وضعفاً فى ثروتها . وكان هذا الضعف على امتداد البلاد ، أما حكام البلاد من ولاة ونواب فقد سيّروا الأمور طبقاً لأهوائهم فى تحقيق أطماعهم دون النظر إلى مشاكل البلاد الحقيقية وسعادة أهلها الأصليين . فقد طُمست الطرق وتهدمت الجسور وأضحت الترع مستنقعات وظمأت الأرض وبارت وفسد الكثير منها ، فكثر الغلاء والقحط وانتشرت الامراض وعم الوباء ، وانسابت البلاد للأهوال والخراب والمجاعات نتيجة الحروب والقلاقل والثورات ، وهذا ما سوف نستعرضه فى الصفحات التالية .

وأول أحداث هذه الحقبة كانت عند دخول العساكر العثمانيين بعد مقتل السلطان الغورى والسلطان طومان باى واشتعال نيران الحرب بين الجيش العثمانى وجيش طومان باى ، وشملت الحرب نواح كثيرة فى البلاد ، بدأت فى العباسية وانتقلت إلى بولاق ثم جهة القصر العينى وباب اللوق والسيدة زينب ومصر العتيقة والرميلة وجزيرة البقر . وأصاب الخراب معظم المنازل والقصور والبساتين وعدة جوامع وزوايا (جامع شيخون وجامع طولون) وكانت الجثث

تملأ كل انحاء القاهرة[1] .

وقد استمر هذا الحال من التخريب والتدمير لأكثر من أربعة ايام قتل فيها نحو عشرة آلاف نفس ، مع ملاحظة أن عدد سكان القاهرة حينئذ كان لا يتجاوز الخمسين ألف نسمه .

ولم تخمد الحرب إلا بعد مقتل طومان بـاى وعندهـا استقرت الدولة العثمانية فى مصر ، وأخذ العساكر العثمانيون يفتشون عن الأمراء والجراكسة ويقتلون من يقبضون عليـه وينهبون منـزله حتى مات الكثير منهم وهرب الباقى بعد أن تهدمت منازلهم . وقد حدث كل هذا بقيادة السلطان سليم آل عثمان بنفسه ، حيث أمضى فى مصر ثمانية أشهر برتب أمورها ، وبعدها رحل إلى القسـطنطينيـة بغنائم كثيرة وجيش كبير من الصناع المهرة . وعفى عن المماليـك الهـاربين بعـد أن قدمـوا للسلطان كل مـا يبرهن عـلى ولائهم لـه واستمرار التبعية ، وقد عين السلطان والياً ليحكم البلاد من قبله .

واستقرت البلاد فترة وجيزة حتى قويت شوكـة المماليـك مرة أخرى واستطاعوا أن يكونوا مركز قوة . وتوالى على البلاد عدة ولاة ، ففى عام ١٥٢٧ م الموافق ٩٣٠ هـ كانت ولاية « أحمد باشا » الذى استـطاع بالتعـاون مع المـاليك أن يجـاهر بـالعصيـان ورغب فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وحدثت بينه وبين جنود السلطان حرب عظيمة فى القاهرة فى منطقة الرميلة وما جاورها . وحاصرها جنـود السلطان « أحمد بـاشا » فى القلعـة وقتلوه ، وأسفرت هـذه الواقفة عن خراب عظيم فى القاهرة .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٧ .

وبعد « أحمد باشا » تولى عدة ولاة ضعاف نذكر منهم « داود باشا » « واسكندر باشا » و « سنان باشا » ووقف كل منهم الأوقاف الخيرية ، ولكن كان من عادتهم أن كل من أراد وقف شيء من وقف غيره ووقفه باسمه ، أو نهب ما بأيدى الناس ولذلك لم تستمر هذه الأوقاف من بعدهم بل أخذت فى التقهقر والخراب حتى صارت بعضاً من كل وقل إيرادها فاختل النظام العام لاضطراب الامن فى البلاد واختل حال الرعية وضعف الأمن وكثر اللصوص وقطاع الطرق وعم الفساد سائر أرجاء القطر . إلى أن تولى « مسيح باشا » فى عام ١٥٧٠ م الموافق ٩٨٧ هـ فتصدى للمفسدين وإزالة أهل الشر فقبض على نحو عشرة آلاف منهم وقتلهم[١] .

على أن حال البلاد لم يستقر لأعوام طويلة ظلت الانقلابات والحروب كما لوك كانت سمة عامة فى مصر آنذاك ، وقد تميزت هذه الحروب بالشدة والضراوة ونذكر منها على سبيل المثال تلك الحرب الأهلية بين الدمياطية بقيادة على بك الدمياطى وبين القطامشة وخربت فيها البلاد ودمرت وحدث ما حدث فى السنين الماضية وخلال القرون السابقة . واستمر الحال هكذا حروب وقلاقل عديدة قتل فيها خلق كثير حتى عام ١٧٦٦ م الموافق لعام ١١٧٩ هـ حيث استقل « على بك الكبير » بأمور مصر وعزل الباشا وخرج عن طاعة الدولة وقويت شوكته وملك الحجاز والشام وضربت العملة بإسمه ونفى الأمير عبد الرحمن كتخذا ، وقد كانت هذه الحادثة السياسية التى أدت لاستقلال على بك الكبير بمصر عن الدولة العثمانية هى المرة التى أحدثت دوياً هائلاً فى الدولة العثمانية وكان لها أثر كبير على

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٨ .

مستوى العالم خلال نيف وخمسين عاما منذ وطأت أقدام العثمانيين مصر فى مطلع القرن السادس عشر[1]

وقد صفا الجو لعلى بك الكبير لفترة من الزمن واستقر حكمه فيها وامتد ملكه فى الشام وجزيرة العرب وإفريقيا . وكان يملك جيشاً عظيماً مجهزاً ومدرباً على الكر والفر من المماليك اشتراهم واختارهم كأحسن ما يكون الإختيار ، وكان من أقرب المماليك إليه محمد بك أبو الذهب الذى كان له الفضل فى اتساع أملاك سيده وأيضاً فى استقلال واستقرار حكمه .

ولكن بالرغم من كل ذلك . . مازال الزمن رديئاً . . زمن المكائد والدسائس فطمع محمد بك أبو الذهب فى الحكم بتشجيع من الباب العالى فى الاستانة فقام محل سيده وصارت حرب أهلية وقودها الشعب المصرى وثرواته وممتلكاته . أما المماليك فتارة يعملون مع محمد بك أبو الذهب وتارة مع على بك الكبير ، وانتهى الأمر بمصرع على بك الكبير ، وأضحت الرياسة إلى محمد بك أبو الذهب الذى لم تطل حياته ولم يمهله القدر فمات فى نفس العام .

وبموت محمد بك أبو الذهب انفرد « مراد بك » وابراهيم بك بالحكم وتصريف الأمور ، وأخذوا فى التعدى على الأمراء الآخرين خصوصاً وأن القدر قد عاجل الأمير « إسماعيل بك» وقد كان صاحب عزة وسلطة وله مماليك وأتباع . واستمر الكر والفر بين مراد بك وابراهيم بك من جانب وقوات اسماعيل بك ومماليكه من جانب آخر . واستمرت القلاقل والانتفاضات والمعارك الجانبية والحرائق فى مناطق متفرقة من القاهرة ، فكانت البلاد فى شبه حرب أهلية

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٢ ، ص ١٥٣ .

ضـروس وازداد الفقر والـظلم والتعـدى عـلى الآمنـين العـزل[1] وأصبحت مصر بأمرائها قسمين : قسم يقال له المحمدية نسبة لمحمد أبو الذهب وقسم العلوية نسبة لعلى بك الكبير ، وكل قسم يكيد للآخر ويتمنى هلاكه ويتربص به الدوائر . وساد التناحر والعدوان واستمرت الفتن والحروب ودمـرت البلاد وفسـدت أحوال القـطر وعطلت أرزاق أهله .

وكذلك حين عُين « إسماعيل باشا » من قبل والياً عـلى مصر بدلاً من « محمد باشا » وكانت البلاد لاتزال فى حروب أهلية مستمرة ولم تنقطع الفتن والمصادرات وكثر الظلم والتعدى . وهنا استقرت الأطراف على أن تأخذ هدنه واتفق على تقسيم المناطق فمثلاً أعطى لاسماعيل بك أخميم وأعمالها وحسنى بك قنا وأعمالها ورضوان بك إسنا وأعمالها ، على أنه لم يمض غير وقت قليل حتى انفض الصلح أو الهدنة ورجعت الأمور إلى ما كانت عليه[1] .

وفى زمن « حسنى بـاشا الخـادم » والى مصر كثـرت الـرشـوة للحكام واتسع نطاقها حتى صارت أمراً معتاداً يحصل من الشعب دون مبالاة . وجعل الباشا همه جمع الدنانير الذهبية ، إلى أن وصل بـه الأمر أن يحتـال بكـل وسيلة لابتـزاز الشعب غـير مـراع حـلاً ولا حرمة . ولم يكن له أثر قط يذكر به إلا تغيير زى اليهود والنصارى فأصدر قانونـاً يحتم على اليهـود لبس الطراطـير السود ويحتم عـلى النصارى لبس البرانيط السود ، وكان زى اليهود قبل ذلك العمائم

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٥٣ .

(١) نفس المصدر السابق ص ١٥٤ .



صـوره تقليديـة للباشـا الوالى احـد حكام الـولايـات العثمانية ، والوالى كان يمثل السلطان فى المقاطعة التى يحكمها ، وكان له بهذا كل النفوذ والسلطة فكان يتحكم فى ثروة المقاطعة كما كان يراس الجيش والبوليس وله سلطة الحكم بالاعدام .

Source- Sherf Borare, **Orental Costumes**, Caro: Zetouna 1988, p. 49.

المرجع :ـ شريف برعى ، الازياء الشرقيه القاهره :ـ دار نشر الزيتونة ١٩٨٨ ص ٤٩

الزرق والنصارى العمائم السود[٢] .

ويمكن القول بصفة عامة أن مصر شهدت أهوالاً طوال قرنين من الزمان خلال هذه الفترة من تاريخها ، وحتى نتمكن من ايجاد نوع من الربط والتسلسل فى عرضنا هذا ينبغى أن نتوقف عند بعض الأحداث التى شهدتها مصر فى الفترة من ١٥٧٩ م وحتى ١٧٨٥ م .

ففى زمن الوالى « محمد باشا الشريف » عام ١٥٧٩ م الموافق عام ١٠٠٠ هـ حدثت حرب أهلية امتدت وقائعها فى منطقة القلعة والرميلة ، وثارت العساكر على الوالى عدة مرات وعارضوه فى أوامر ورفضوا طاعته وأوقعوا السلب والنهب بالتجار والأهالى واستمر مسلسل الفتن والاضطرابات .

وفى زمن الوالى « خضر باشا » عام ١٥٨٢ م الموافق ١٠٠٣ هـ حدثت حرب أهلية فى القاهرة أيضاً أدت إلى دمار وخراب وكساد ومجاعات ، وفى زمن « على باشا » شُرب الدخان فى مصر لأول مرة ولم يكن معروفاً للناس من قبل[١] .

وأثناء ولاية « إبراهيم باشا » عام ١٥٩٤ م الموافق لعام ١٠١٢ هـ قتلت العساكر الوالى نفسه ابراهيم باشا وصارت الحكومة فوضى بلا رئيس لها وحل بالناس المكروه وتعطل السفر برا وبحراً لقيام الاشقياء من الفلاحين والبدو بالاغتداء على المسافرين والحجاج وحل القحط والغلاء والبلاء والخراب بالقرى والمدن وخصوصاً

---

(٢) نفس المصدر ص ١٤٨ .

(١) نفس المصدر ص ١٤٩

القاهرة المحروسة . واستمر الحال هكذا سنين لم تحصل خلالها أية إيرادات ترسل إلى السلطان[1] .

وفى عام ١٦٠٩ م الموافق ١٠٢٧ هـ أرسل السلطان أربعة آلاف عسكرى إلى مصر كانوا يثيرون الفتن فى العاصمة إستانبول (الآستانة) وكان من المفروض أن يرسلوا إلى اليمن للخلاص منهم ولإظهار هيبة السلطان فى مصر . ولما أراد الوالى إرسالهم إلى اليمن وتجهيزهم بما يحتاجون إليه . قام الجنود بالثورة على الوالى والعصيان على السلطان ، وأغلقوا باب الفتوح وباب النصر وأقاموا المتاريس بالطرق والشوارع ، واستولوا على المتاجر والحانات وكثير من البيوت ، فقام عليهم الوالى والعساكر المصرية بالتعاون مع المماليك ، بطبيعة الحال ، ودارت بين الطرفين حرب شرسة استمر القتال فيها عدة أيام على هذا النحو ثم انقلب الحال إلى حرب أهلية طويلة بين الجيش العثمانى وجيش المماليك المصرية لمدة عامين متتالين ولم تضع أوزارها إلا فى عام ١٦١٧ م الموافق ١٠٣٥ هـ ، وعلى اثر هذه الموقعة دمرت البلاد تدميرا .

ويلاحظ هنا أنه فى المدة من ١٥٢٧ م إلى ١٦١٧ م — أى قرابة قرن من الزمان — لم تنقطع الحروب الأهلية المتعاقبة متخذة من مصر وشعبها مسرحاً لها .

ولما تولى « منصور باشا » ولاية مصر عام ١٦٣٤ م الموافق لعام ١٠٥٢ هـ كانت أنواع الضرائب والإتاوات اثنين وثلاثين نوعاً فرضت على كل الناس فمنها ما هو على الصناع ، التجار ، والبغايا وأولاد الهوى ، وحتى على الذبائح ، وكذلك الفلاحين ، وعلى

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٩ .

العديد من الشرائح والقطاعات[1] .

واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٦٥٢ الموافق ١٠٧١ هـ حيث حدثت حرب أهلية هائلة وعرفت هذه الموقعة باسم « الصناجيق » وقد انقسم فيها المماليك أحزاباً ، واشتعلت نار الحرب فى شوارع القاهرة وضواحيها وامتدت إلى الأقاليم القبلية . وجهز الوالى عدة حملات تأديبية على هؤلاء الأمراء وجيوشهم ، انتهت بقتل أغلب الأمراء الفقارية نسبة إلى رئيسهم ذو الفقار[2] .

وفى إثر ما سلف وفى عام ١٦٥٥ م الموافق ١٠٧٤ هـ كانت ولاية « عمر باشا » فاهتم بتهدئة النفوس وجمع السلاح من كل أرجاء البلاد من العامة والأمراء على حد سواء . ولكن الضغائن كانت كامنة فى النفوس من الذين هربوا ومن بقى من الفقارية ، وفى كل وقت كانوا يتحينون أى فرصة للإنتقام من خصوصهم طمعاً فى الوصول إلى مراكزهم وما كانوا عليه من نعيم[3] .

ولم يمض غير وقت قليل حتى قامت وقعة « الزرب » وهم أقوام حضروا من الشام أغلبهم أروام ودروز انخرطوا فى سلك العسكرية[4] ووصل بعضهم إلى مراكز السلطة فى البلاد ثم انضموا إلى محمد بك حاكم جرجا وصاروا أنصاره ، وأخذوا يسلبون وينهبون ويزهقون الأرواح على أى سبب . ورغم شكوى الناس للوالى ، ازداد طغيانهم وفتكوا بهم ، لكل هذا اضطر الوالى إلى

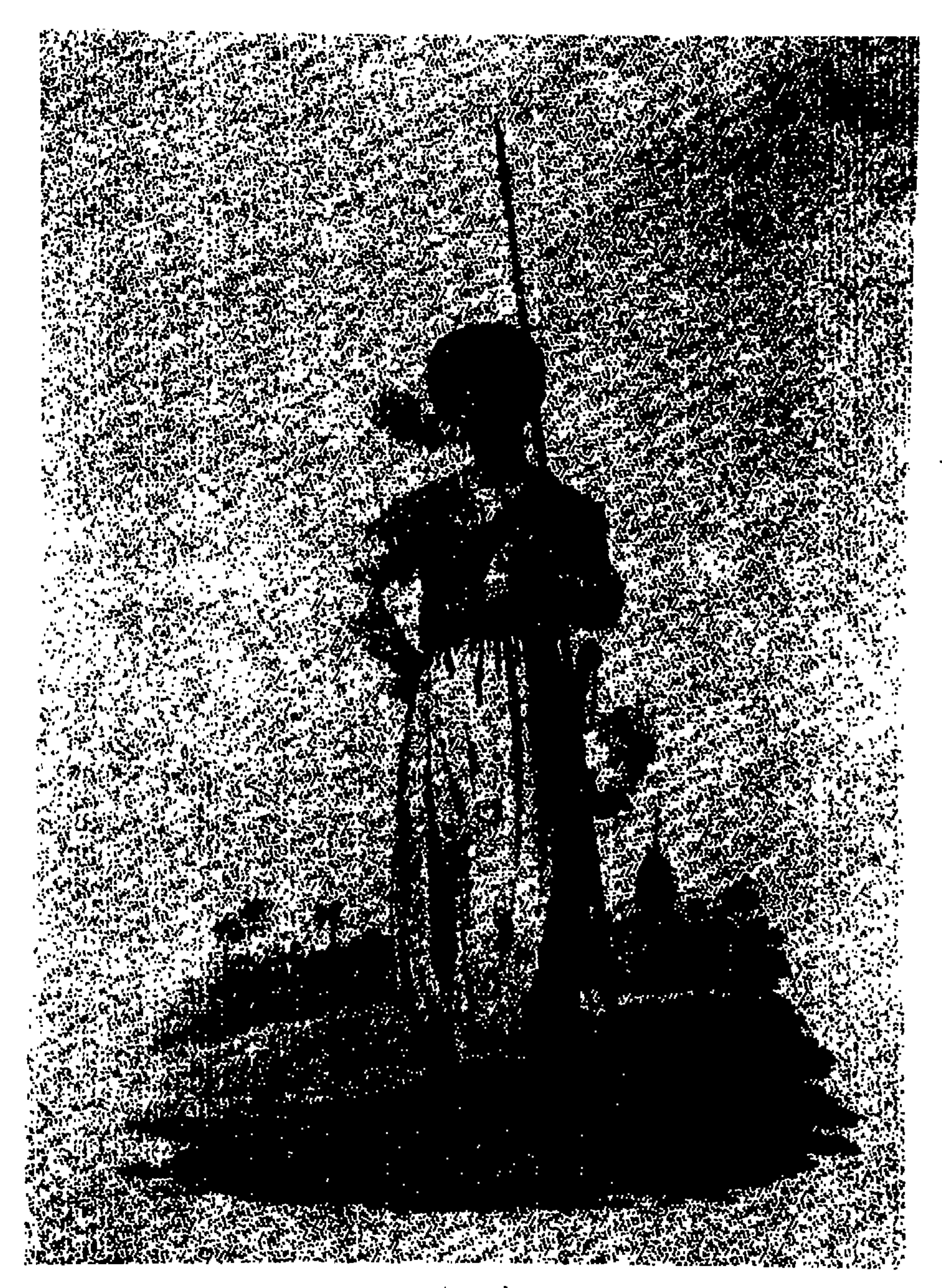
---

(١) نفس المصدر ص ١٤٩ ، ص ١٥٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ .

(٣) نفس المصدر ص ١٥٠ .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٠



جندى مملوك

محاربتهم ، فأعد لهم ما استطاع من القوة ووجه عليهم المدافع ، وكانوا قد تحصنوا بجامع المؤيد ، فحاصرهم فيه وقاتلهم قتالاً شديداً ، مات فيه كثير من الناس وخربت عمائر كثيرة فى السكرية والداودية والدرب الأحمر وتحت الربع وما يحيط بتلك الأحياء . وقد عانى شعب القاهرة الكثير من هذا الاعتداء الظالم على الأرواح الذى راح ضحيته أطفال ونساء وحتى الشيوخ لم يأمنوا شر هذا العنف ، كما امتد الاعتداء إلى الأموال فسلبت المنقولات وصودرت الخيول والدواب . . . . وبعد ذلك هدأت الأحوال نسبياً ولفترة وجيزة لالتقاط الأنفاس من جراء الكر والفر المستمرين .

وفى غصون عام ١٦٦١ م الموافق ١٠٨١ هـ شب حريق هائل فى منطقة باب زويلة نتيجة الفتن وما تحمله الصدور من أحقاد وكراهية يكنها كل طرف للطرف الآخر ، واستمر هذا الحريق أياماً وخسرت البلاد ما خسرت فى هذا الدمار الذى اتسم باستمرارية أحداثه[1] .

وفى خلال عام ١٦٨٢ م الموافق لعام ١١٠٢ هـ كان الفساد قد بلغ منتهاه ، إنتشر قطاع الطرق وروّع الناس وانقطع ورود الغلال إلى الشون السلطانية وأصبحت خزينة الحكومة خالية من الأموال ، ولم تصرف مرتبات الموظفين والجنود وكذا الولاة ، وانسحب ذلك على أموال الحرمين والأوقاف وكذلك العلماء والأشراف ومخصصات الأيتام والأرامل .

وبسبب هذه الأوضاع السيئة نشأ نظام غريب هو « نظام

(١) نفس المصدر ص ١٥١ .

الحماية » ويتلخص فى أن كل طائفة من الجند تقوم أو يقع على عاتقها حماية مجموعة من التجار أو الملاحين فى البحر داخل حدود منطقة محددة فيقسمون مع الناس أرباحهم وذلك باتفاق كامل بين الجنود وبين أبناء البلاد فى هذه المنطقة بتجارها وصناعها وأهلها ، وبمقتضى هذا الاتفاق يمتنع الأهالى عن دفع أى مخصصات للحكومة ولا يتمكن الحاكم من التعرض لأحد منهم[٢] .

وبمحاولات عديدة استطاع الوالى « على باشا قلج » أن يبطل الحمايات وحارب حماة هذا الوضع وأفنى منهم الكثير فهدأت الأمور وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم . على أن الغلاء الفاحش كان قد بلغ منتهاه من جراء حوادث السنين الماضية التى أتت على كل شىء .

ومع مطلع القرن السابع عشر الميلادى ١٦٩٩ م الموافق ١١١٩ هـ كان والى مصر « حسين باشا الوزير » الذى حاول أن يضبط النظام مع الجند ويصفى جيوب نظام الحماية وما يتبع ذلك من أخذ الرشاوى من رجال الأعمال والتجار والصناع ، واستطاع هذا الوالى أن يقف بالمرصاد لكل محاولات الفساد ، لكن الجنود احتجوا على محاولات الاصلاح لأن الوالى لم يضمن لهم مرتباتهم أو الحد الأدنى من الحياة التى تعودوها ، فقاموا عليه مرة واحدة وحاصروه بالقلعة ونهبوا القاهرة[١] .

وفى عام ١٧٠٩ م الموافق ١١٢٢ هـ قام الجند بانقلاب جديد

---

(١) نفس المصدر ص ١٥١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥١ .

وحاصروا الوزير « خليل باشا » وقطعوا الطريق والمرور فى مناطق المحجر وعرب اليسار والرميلة والصليبية والدروب الموصلة والمؤدية للقلعة . وقد استمرت أحداث هذا الانقلاب سبعين يوماً ازداد فيها تخريب القاهرة ومناطقها سوق السلاح والداودية والخليفة والقصر العينى ومصر العتيقة والسيدة زينب[1] .

وفى عام ١٧١٢ م الموافق ١١٢٥ هـ أثناء ولاية « عابدين باشا » نشبت حرب أهلية أخرى بين أعوان غيطاسى بك وأعوان عابدين باشا لاقت البلاد من جراء هذه الحرب وأحداثها الأمرين[2] .

ومع عام ١٧٢٠ م الموافق لعام ١١٣٣ هـ كان « محمد باشا البستانى » والى مصر على رأس البلاد ، وأخذ فى تصفية الفقارية والقضاء على القاسمية ، وإستمرت حرب أهلية ضروس تأكل مصر ضمن مسلسل الحروب التى لا تنقطع حتى وقع الصلح ، فاتفقت القاسمية والفقارية على تقسيم الوظائف بين الطائفتين وأن تقسم الغنائم فيما بينهم وقاموا متضامنين متحالفين بعزل الوالى . على أن الفريقين ظلا متربصين كل منهما للآخر .

وفى عام ١٧٢٩ ــ ١٧٣٠ م الموافق ١١٤١ ــ ١١٤٢ هـ عين السلطان « عبد الله باشا » والياً على مصر ، وكانت الضغائن ماتزال فى الصدور بين الفقارية والقاسمية ونشبت تلك الحرب التى انتصر فيها القاسمية[3] وهرب الفقارية وتفرقوا فى البلاد .

وفى عام ١٧٨٣ م الموافق لعام ١١٩٧ هـ وخلال حكم الوالى

---

(١) من المعروف أن القصر كان لشيخ يسمى « العينى » ثم تحول إلى مدرسة للطب فى عهد محمد على .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٢ .

« محمد باشا السلحدار » اهتم « ابراهيم بك » بمصالحة أمراء الصعيد وكان هذا خلافاً « مراد بك » فحدثت بين الطرفين حرب ضروس ضاع فيها الشعب ولحق الناس ما لا طاقة لهم به . ولما أتت الحرب على ما تم إصلاحه قام كل من مراد بك وابراهيم بك بالتصالح . هذا التصالح الذى أزعج « إسماعيل بك » وشقيقه وجعلها يحسان الخطر الأمر الذى كان من نتيجته قيام الحرب بين حلف ابراهيم بك ومراد بك من ناحية ضد إسماعيل بك ومماليكه من ناحية أخرى . وعلى الجملة كانت البلاد فى بلاء عظيم تتابعت فيه المصائب والنوائب[1] .

وفى عام ١٧٨٥ م الموافق لعام ١١٩٩ هـ إنتشر الطاعون . وكانت هذه الأيام لا مثيل لها فى الشدائد ، وواكب انتشار الطاعون جفاف النيل فانتشرت المجاعات وتوالت المصادرات والمظالم وتعدى الأمراء المماليك كل حدود الظلم وانتشر أتباعهم فى القرى لجلب الأموال ، واتجه الأمراء إلى الملتزمين وبعثوا لهم فى بيوتهم بمضاعفة ما عليهم[1] فباع الملتزمون أمتعتهم ودورهم ومواشيهم وفاءً لذلك . ولم يكتف الأمراء بذلك فتتبعوا كل من يشم فيه رائحة الغنى فيأخذوه ويحبسوه ويكلفوه فوق طاقته أضعافا . بل أنهم طمعوا فى المواريث فإذا مات الميت يستولون على ما خلفه سواء كان له وارث أو لم يكن[2] .

. . . . من العرض السابق يتضح لنا مدى الشدة التى عانتها مصر والمصريون طوال قرنين من الزمان وبالتحديد منذ دخول

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٥ .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٤

العثمانيون حيث بدأ الصراع المملوكي العثماني يتخذ أعنف أشكال الصراعات ، فلم تكد تمر سنة دون حرب أو فتنة تجعل من البلاد ساحة للقتال والتخريب ، كل ذلك والحكام والولاة والأمراء لا يهمهم أمر مصر أو شعبها في قليل أو كثير ، المهم السعي من أجل المصلحة الشخصية والنفوذ وجمع كل ما يمكن جمعه خشية عواقب الزمن الرديء هكذا كانوا يفكرون .

كل هذه الصور التي التقطناها من أوراق التاريخ تظهر بجلاء تلك الحالة التي كانت عليها مصر والآلام التي استطاع هذا الشعب أن يتحملها في صبر عظيم وإيمان قوي وهكذا كان قدر مصر وقضاء الله سبحانه وتعالى .

وكما كان قدر مصر أن تشهد مزيداً من المعاناة ، كان مقدراً لها أن تشهد مولد نجم جديد بدأ يلمع على ساحتها السياسية . كان ضابطاً شاباً ضمن حملة جهزتها الدولة العثمانية لمقاومة تقدم الفرنسيين داخل الأراضي المصرية . ظل يرقب ويحلل ويرصد كل الظواهر والمتغيرات على ساحة المجتمع المصري . . وأحبها ، أحب مصر ، هواها قلبه وعشقها وجدانه ، وأبى على نفسه إلا أن يرتقي ويصعد بها عالياً ، فاستقبلته وأحبته وجاهدت معه ومنحته الجاه والسلطان فأعطاها العزة والمجد . إنه « محمد علي » .

نشأة محمد على
١٧٦٩ = ١٨٤٩

فقد ظل يجدف بقوة وعزم الى أن بلغ الجزيرة . ومنذ ذلك اليوم إرتضول زعيماً لهم ، وقد قال محمد على عن هذه الواقعة ، ولما أدركت الجزيرة وجدت جلدى قد تسلخ ..ولكنى كنت مصمما على تحقيق أمنيتى مهما اشتدت المحن ، وبهذه الطريقة مضيت فى تنمية قواى البدنية والعضلية .

محمد على

نشأة محمد على

١٧٦٩ ـ ١٨٤٩

كانت الامبراطورية العثمانية تمتد عبر ثلاث قارات هى أوربا ، وآسيا ، وإفريقيا . هذه القارات شكلت كل العالم القديم حينذاك .

وقد امتدت حدود الإمبراطورية العثمانية فى أوربا إلى دول البلقان ومنها اليونان ويوجوسلافيا وألبانيا وبلغاريا ورومانيا ، وما بعد دول البلقان من الشمال حيث المجر وتشيكوسلوفاكيا وبعض أراضى النمسا حتى مشارف فينا ، فقد حاصرت جيوش العثمانيون فينا عاصمة الامبراطورية النمسوية أول مرة عام ١٥٤٩ م ودارت رحى الحرب فى عنف وشراسة وجاء الحصار الثانى لفينا عام ١٦٨٣ ميلادية .

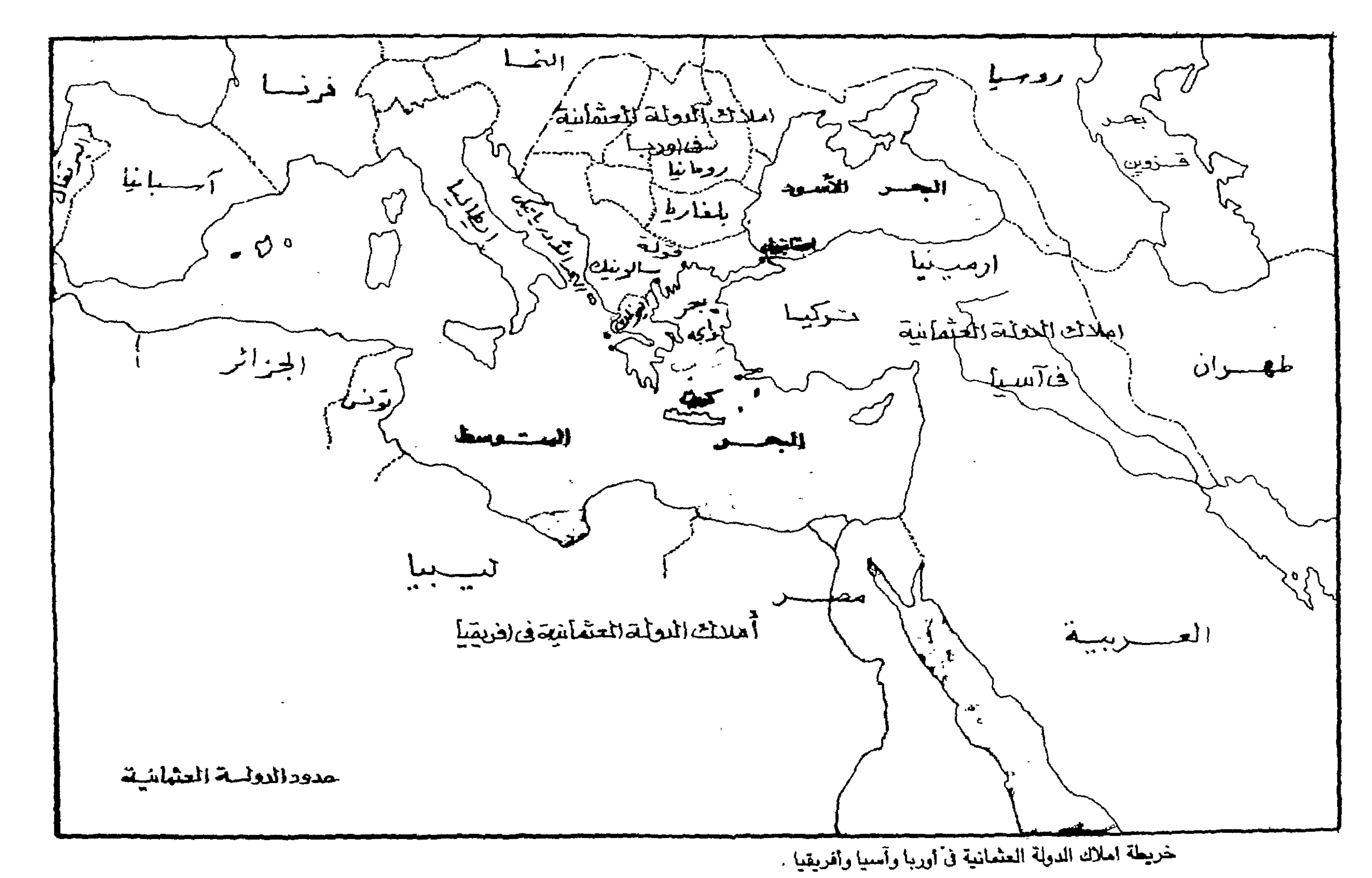
وقد كانت الأقاليم أو الولايات الواقعة فى الأراضى الأوربية هذه تسمى بالروملى أى بلاد الروم أو ملة الروم أو أهل الروم ، إذ كانت هذه الاراضى ملك الدولة الرومانية من قبل . وكانت رتبة واليها « بكلربك » أى بك البكوات ، وتتبعها خمس ولايات « بشالك » . وعلى الساحل الأوربى لبحر إيجه تقع قرية قولة ، وهى

تبعد عن مدينة سالونيك فى الغرب بحوالى ٨٠ كيلو مترا ومن ناحية الشرق تقع عاصمة الامبراطورية العثمانية الآستانة (اسنانبول) بحوالى ٣٨٠ كيلو مترا ، والقرية تحتل صخرة موغلة فى مياه البحر وتظهر من بعد على هيئة رأس جواد وقد تملكها الجونيويون والبنادقة زمناً طويلاً ، زمناً وكانت تسمى (لاكوال) أى الحصان باللغة اللاتينية ، أو «قل» الإغريقية ، نسبة إلى هذه الصخرة التى قامت عليها القرية ، وقد حرفت مع الزمن إلى « كافالا» وحرفت باللغة العربية الى « قولة »[1] التى كان سكانها من رعايا الدولة العثمانية شأنهم شأن رعايا الدولة العثمانية فى كافة القرى بمصر أو العراق أو أى مكان آخر لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات .

هذه القرية تضافرت مجموعة من السمات المعمارية والطبيعية والاجتماعية التى شكلت منها لوحة فنية متكاملة المعانى . فالقرية تبدو ناصعة البياض عن بعد حيث بنيت منازلها من الحجر الجيرى ، والأسقف مجهزة بقطع القرميد الأحمر والتى تأخذ فى شكلها الميول المختلفة لكى تتناسب مع هطول الأمطار الشتوية الغزيرة . هذه المنازل كانت تشكل مجموعات متناسقة يساند بعضها بعضاً فى انسجام ، فيها الجديد والقديم ، وغالباً ما تتكون من دور واحد أو دورين منخفضين ، الواجهات مطرزة ومعظم النوافذ مغطاة بالمشربيات الخشبية ذات الطراز الاسلامى الشهير . هذا بالإضافة إلى التشكيلات المعمارية الأخرى التى تتمثل فى المنازل والمدارس والمساجد فضلاً عن الأحواش والأبنية والأذقة والحوارى الضيقة الصاعدة والهابطة المرصوفة بالبلاط الجيرى المربع الشكل أحياناً

---

(١) كريم ثابت ــ محمد على ــ مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ــ ص ١٠.



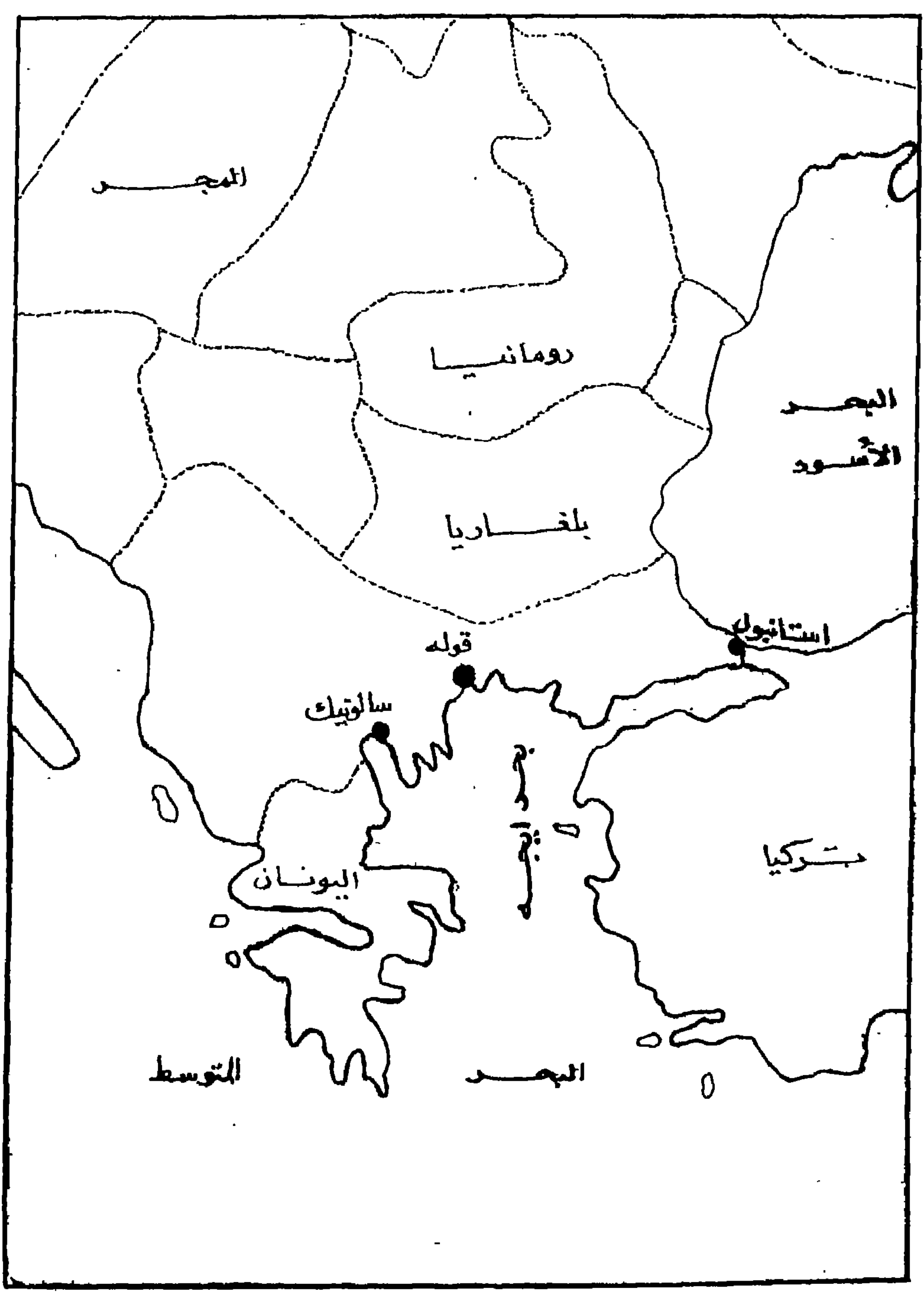
خريطة املاك الدولة العثمانية فى أوربا وآسيا وأفريقيا .

– د . حسين مؤنس – أطلس تاريخ الاسلام – الزهراء للاعلام العربى – القاهرة – ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ Martin Gilbert- Weidenfeld and Nicolson 5 Winslery st, London WI p. I.

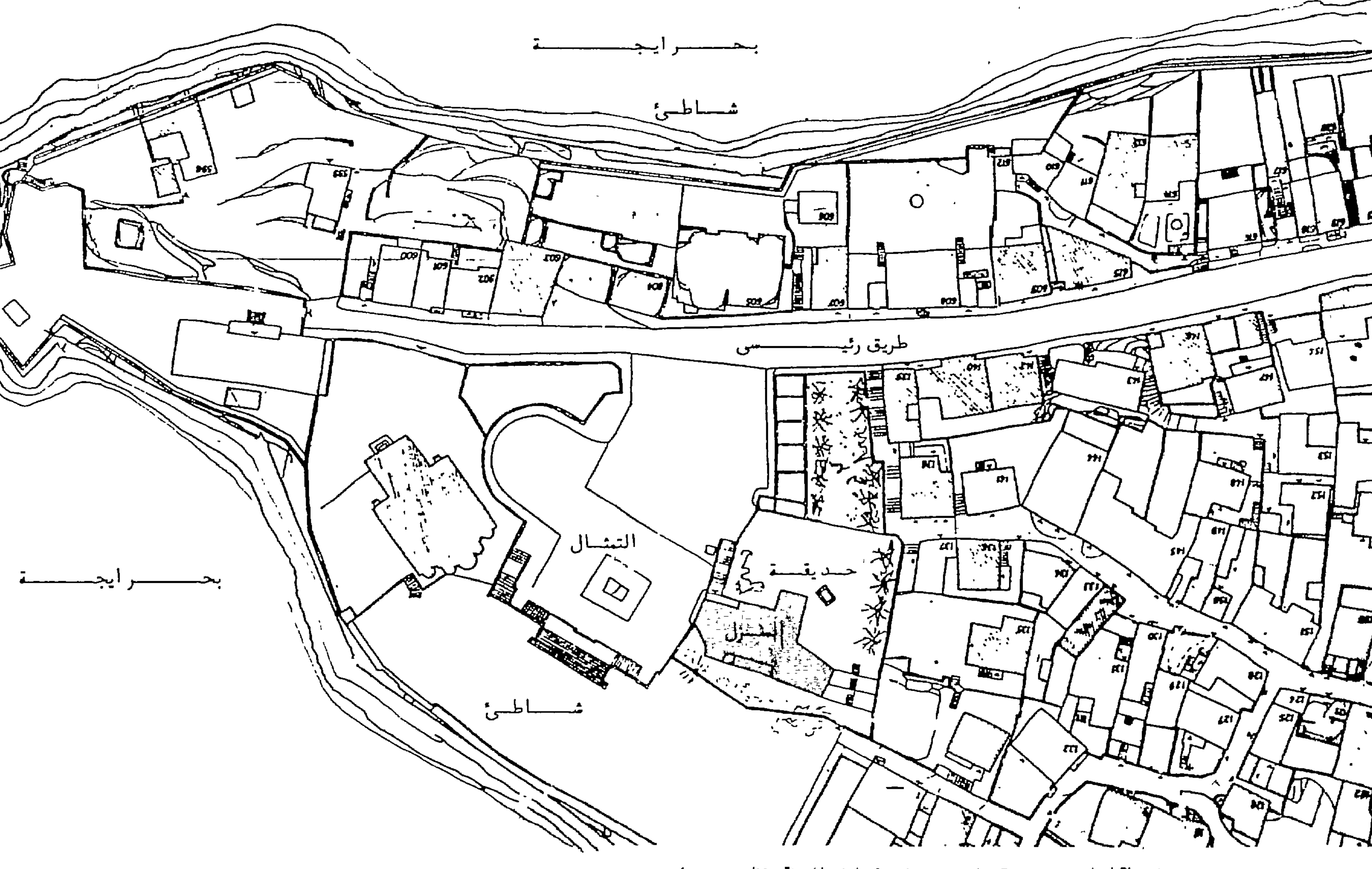
والمجهزة بدرجات السلالم لتناسب طبيعة الميول أحياناً أخرى . ويكمل هذه اللوحة المعمارية بعض النسوة يتجاذبن أطراف الحديث جالسين فى بؤرة مشمة يلاحقون حزمة شمس دافئة تفترش الأرض أمام منازلهم .

وتطل قرية قولة على بحر إيجة من خلال شاطىء صخرى متعرج ذو تجاويف ونتوءات - طبيعة شواطى بحر إيجة - تتكسر عليها أمواج البحر فى تلاطم مستمر بشكل لانهائى كأنها سيمفونية أبدية . فصوت الأمواج تتكسر على صخور هذا الشاطىء ، ومع المد كانت مياه البحر تغطى الصخور المتناثرة ومع الجزر تتكشف أجزاء كبيرة من الشاطىء وتظهر الصخور المتناثرة ، وتبدأ المياه المحتجزة فى التجاويف والنتوءات الصخرية فى الانحدار مرة أخرى إلى البحر مكونة جداول وتزداد هذه الظاهرة مع الليالى القمرية كل هذا وصوت المياه فى حاله مستمرة من الايقاع المتنوع الذى لايهدأ . وهكذا يكون الشاطىء بصخوره دائما نظيفاً نقياً منعشاً عليه حركة دائمة من الأمواج مداً وجزراً . والقرية بدورها تربط بين هذا الشاطى الجميل وبين المنطقة المحيطة فى تدرج حتى التلال ذات الخضرة المنتشرة فى عشوائية محببة . أعشاب هنا وزهور برية هناك بألوان مختلفة . ويتخلل كل ذلك مجموعة أشجار صنوبر باسقة متعانقة الهامات فى هذا الفلك الرحب .

ويكمل هذه اللوحة الطبيعية قطعان الماشية التى كانت تغدو وتروح ، ترعاها فتاة بسروالها الأسود القطيفة وسترة عليها نقوش بلقانية علاوة على غطاء الرأس الاسلامى الوقور ، وعلى الجانب الآخر من التل تجد مجموعة من الخراف يرعاها فتى صغير بزيه البلقانى السروال الطويل الواسع والصديرية الحمراء المطرزة وغطاء الرأس



خريطة توضح القطاع الاوربى فى الامبراطورية العثمانية ـــ اليونان والمانيا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا والمجر واجزاء من النمســا حيث تظهر العــاصمة استــانبول ومـدينة ســالــونيــك ويتوسطهم قرية قوله تبعد عن استانبول بحوالى ٣٨٠ كيلو متر عن سالونيك بحوالى ٨٠ كيلو متر



خريطة لجانب من مدينة قوله حيث يظهر في طرف المدينة منزل محمد علي.

قوله القرية الوديعة التى انجبت محمد على
والتى تطورت خلال قرنين من الزمان واصبحت
مدينة عامرة وأضحت من ثغور اليونان التى تطل
على بحر ايجه

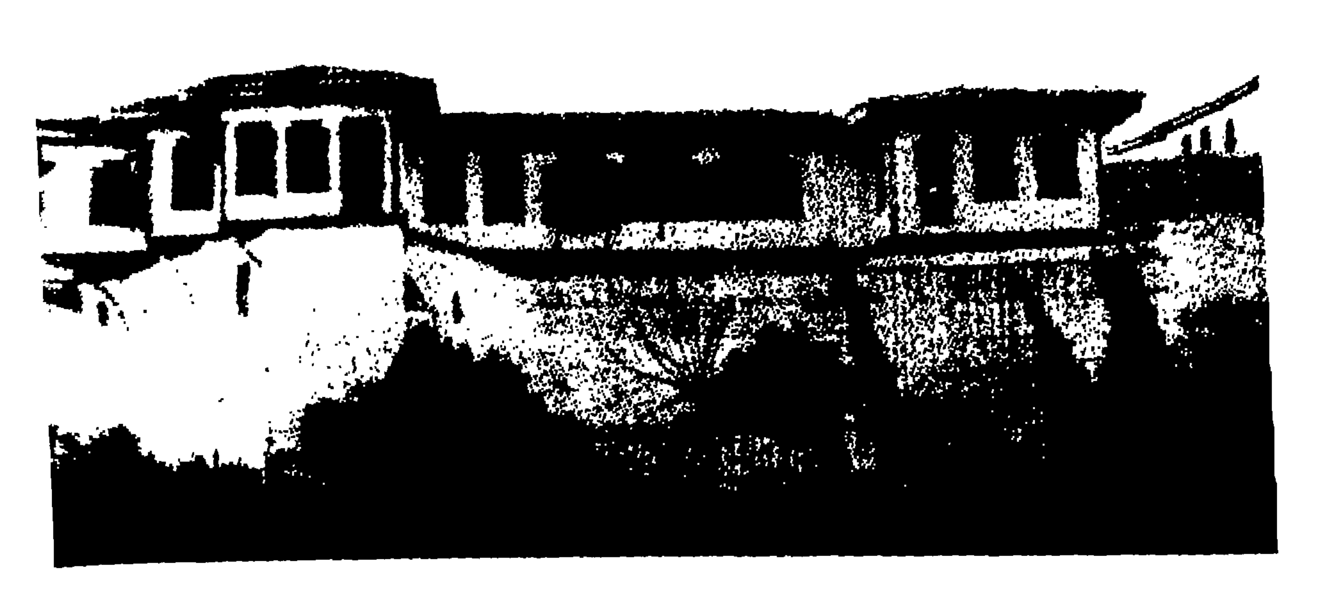


العثمانى الأحمر والزر الأزرق الشهير والحذاء ذو المقدمة الرفيعة المنثنية باتجاه القدم ، يعدو معها فى اتجاهات مختلفة يحدد مسارها الحصى ومجارى المياه العذبة والتى تتدفق فى غزارة ورقرقة شاعرية من آثار ذوبان الثلوج على مرتفعات التلال القريبة أو على قمم الجبال المحيطة فى داخل البلاد مع قدوم كل ربيع .

وفى هذه القرية الصغيرة من قرى اليونان الهادئة . . على ربوة مرتفعة تشرف على بحر ايجه وتتدرج مع ما حولها بتدرج طبيعى بميول محببة . . . تقع دار « جنتكمان » التى ولد فيها « محمد على باشا» . وهذا البيت البسيط الهادىء تحيط به حديقة صغيرة أنيقة ويواجه مياه البحر بواجهتيه القبلية والغربية ، وله ميدان فسيح به قاعدة تمثال « محمد على » اقامه يونانيو مصر رمزاً لولائهم لمصر التى اتخذوها وطناً ثانياً لهم .

وتنقسم الدار إلى قسمين : قسم للرجال وقسم للحريم ، قسم الرجال أو « السلاملك الرجالى » ومدخله من الواجهة الغربية المطلة على البحر ، وبه بيت الماء ، وصالة المدخل وبها سلم يؤدى إلى الدور الأول ، وقاعة الاستقبال وتطل على الميدان . والقسم الآخر « الحرملك» ومدخله من الواجهة البحرية ويتكون من حجرتين بالدور الأرضى يتوسطهما فناء به سلم خاص للحريم وثلاث حجرات نوم بالدور الأول منها الحجرة التى ولد فيها محمد على وتطل على الطريق والبحر ولازالت كما هى بما فيها من أثاث ومعدات أولية للتدفئة وتحوى كل حجرة من حجرات النوم ، مدفأة مستديرة مثبتة فى الحائط ، كما أن دواليب الملابس جميعها ثابتة ، وتطل الحجرات بنوافذ داخلية على الصالات . وطراز البيت بين الطراز التركى للمساكن شأن معظم بيوت القرية وطابع الإنشاء فى جنوب اليونان ،

بيت محمد على ـ بواجهته الجنوبية والتى تطل على بحر إيجه



والدور الأرضى مبنى بالحجر الجيرى الأبيض أما الدور الأول ، فمن هيكل خشبى سقفه جمالونات منخفضة تكسوها قراميد يونانية . وقد نقل « محمد على باشا » ذلك الطراز إلى وادى النيل فطبع به سراى رأس التين القديمة التى بناها لتكون مقره الصيفى ، كما بنيت على نمطها السراى الصيفية التى بناها الأمير محمد على فى الاسكندرية . ففى هذا البيت ، الساكن الارجاء ، ولد « محمد على باشا » ومنه خرج ليكون على موعد مع مصر المحروسة معشوقته .

المهم كانت هذه القرية جزءاً من البيئة المحيطة بها ، وكان أهلها يعيشون الحياة الشرقية من خلال الحكم والتقاليد والأعراف العثمانية والأسلامية ، إلا أن ظلال أوربا وبداية ثورتها الصناعية وما صاحب ذلك من تطور فى المجتمع الأوربى انعكست بآثارها على منطقة البلقان باعتبارها ضمن النسيج الأوربى وأفرزت هذه المتغيرات تأثيرها على كل المدن والقرى المحيطة بما فيها قرية « قولة » .

ولد محمد على فى هذا المنزل فيما بين عامى ١٧٦٩ ، ١٧٧٠ م[١]. وقد اختلف المؤرخون فى تحديد التاريخ بالضبط لعدم وجود ما يرجع إليه فى هذا الصدد ، ولم يكن مألوفاً فى بلاد السلطنة العثمانية فى هذا الزمان أن يعرف المرء السنة التى رأى النور فيها على وجه التحديد ، كما أن محمد على نفسه لم يقطع بيوم مولده .

وكان يقطن هذه القرية مجموعة من العائلات قليلة العدد يعيشون على الصيد والتجارة وبعض الزراعة والرعى . وكانت القرى التى تقع فى اطراف السلطنة ، ومنها « قولة » تفتقر إلى الأمن حيث كانت تثور فى هذه المناطق بعض الانتفاضات على فترات غير

---

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

منتظمة ضد السلطان وولاته بسبب فرض الضرائب المستمرة والظلم الجائر ، وأيضاً بفعل حركات التطلع الى الاستقلال ، وخصوصاً أن أصداء الثورة الفرنسية مازال يتردد صداها فى أرجاء العالم وعلى مختلف الشعوب ، خصوصاً فى ولايات الحدود الجنوبية الأوربية القريبة من الامبراطورية النمساوية والامبراطورية الروسية حيث يسهل تهريب السلاح وما عداه وتقوية عناصر الشغب

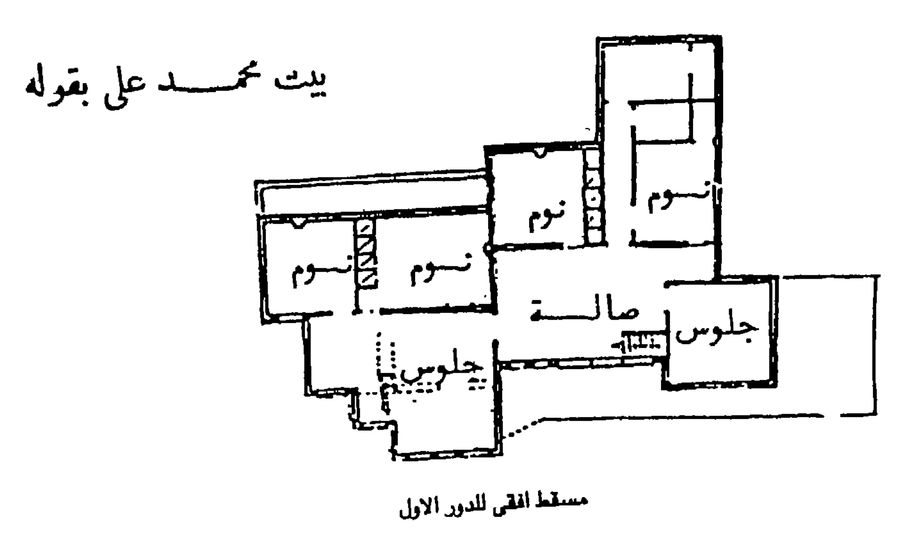
وفى ظل هذا المناخ الدائم الغليان إختلطت الأمور وانتشر قطاع الطرق فى أماكن متفرقة من الامبراطورية ، ومنها بالطبع منطقة البلقان ، حيث العداء الطبيعى للحكم العثمانى . وفى غضون هذه الأعوام كان يقوم بأعمال حراسة الطرق لمنطقة قولة وما يجاورها شيخ معروف يدعى ابراهيم اغا ، كان رئيساً للحرس المنوط به حراسة الطرق[1] ، وقد رزق هذا الشيخ بسبعة عشر ولداً توفاهم الله إلا أصغرهم وكان يسمى محمد على وهو اسم مُركب . وعندما ولد محمد على فرحت به أمه كثيراً بعد نبوءة عرافة أهل القرية ، وعن هذه النبوءة يقول « تشالز موريس » فى الكتاب الذى وضعه عن محمد على ، أنه لما كانت أمه حاملاً ذهبت إلى عرافة ذائعة الصيت فى قولة فتنبأت للمولود بأنه سيرقى ذروة المجد والعظمة ويبلغ مرتبة الحكام والملوك . فاغتبطت الام بهذه النبوءة التى خلدتها الروائية البروسية قلباخ ووصفتها وصفاً جميلاً فى رواية تاريخية عن محمد على[2]

ولّما ترعرع محمد على لم تكف والدته عن ترديد هذه النبوءة له ، فأثرت فيه تأثيرا عظيما ، وتولد فيه شعور الطموح إلى المجد حيث

(١) المصدر السابق ص ١١

(٢) المصدر السابق ص ١٨

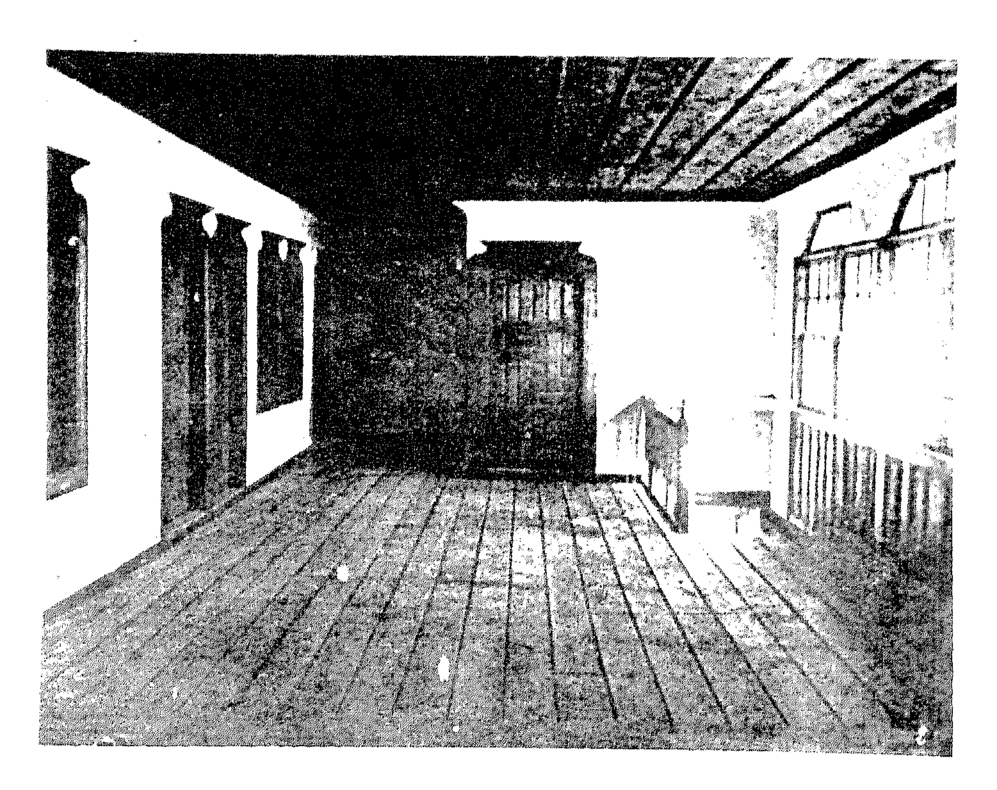
بيت محمد على بقوله



مسقط افقى للدور الاول

مسقط افقى للدور الأرضى(١)

(١) د . سيد كريم — بيت محمد على بقوله — مجلة العمارة — العدد ٣ ، ٤ ، — ١٩٤١ ص ١٦ ص ١٤



منظر داخلي للصالة الكبيرة
بالدور الاول ويظهر به السلم
الرئيسي والنوافذ التي تطل على
البحر .

كان مجتهدا يعمل بدون كلل ويواصل الليل بالنهار من أجل المعرفة وخاصة الجديد منها وهذا ما تخبر عنه الأيام المقبلة ، مع هذا الفتى الشجاع .

ولما كان محمد على هو الطفل الوحيد الذى أراد الله له الحياة من بين الأولاد الذين رزق بهم والده ، بعث ذلك والده إبراهيم أغا على تنشئة ابنه الوحيد تنشأة رغدة هنية . ترعرع محمد على لين العود ، وكان هذا التدليل مدعاة لأن يسخر منه أقرانه ، وكان رفاقه فى الطفولة يقولون إذا فقد محمد علي والده فمن ذا الذى يعوله ، وماذا يكون مصبره ؟ فإنه لا يملك شيئاً وليس أهلا لأن يعمل شيئا . ومات الشيخ ابراهيم أغا وهو فى العقد السابع من عمره ولا يزال محمد على حدثا ــ فكفله عمه طوسون وكان لكلام أقرانه الساخر عنه وغيرهم وقع عظيم فى نفس الطفل المدلل مما استفزه مع بلوغ الخامسة عشر إلى إصلاح حاله والتغلب على هذا التدليل بنفسه فأخذ يصوم أياما متواصلة ليروض جسمه ، ويعوده الجوع وكان يمسك عن النوم ليالى طويلة ، يبث فى روحه الجلد والصبر على المجهود والعناء . . . وكان لهذه التربية التى ألزم بها نفسه ، وكذا التدريبات القاسية والمتعددة أثر كبير فى تنشئته ، ومن ذلك الحين بدأ ينازلهم فى الحركات والتمرينات الرياضية ولا يلجأ إلى السكون إلا بعد ما يسلم له الجميع ، وقد دعاهم يوما إلى اختبار قوتهم فى التجديف من الشاطىء إلى جزيرة على مرمى البصر عينوها بأنفسهم ، فما كادوا يبتعدون عن الشاطىء قليلا حتى هبت عاصفة قاسية لم يستطيعوا كلهم الاستمرار فى التجديف ما عداه هو ، فقد ظل يجدف بقوة وعزم إلى أن بلغ الجزيرة ، ومنذ ذلك اليوم ارتضوه زعيما لهم وقال

محمد على عن هذة الواقعة : « ولما أدركت الجزيرة وجدت جلدى قد تسلخ ولكنى كنت مصمما على تحقيق أمنيتى مهما اشتدت المحن وبهذه الطريقة مضيت فى تنمية قواى البدنية والعضلية[1] » .

وقبل كل شىء فإن محمد على كان فارسا موهوبا وكانت تألفه الجياد لحسن معاملته لهذا الحيوان النبيل ـــ دون أن يجد عسرا ، فكان الجواد معه سلس القيادة كحمل وديع ، وكانت تعلوه قمة السعادة والسرور وهو فوق جواده يعدو فى البرارى وكأن كل عضلة فى جسده تهتف فى غبطه ، كأنما قد ولد « محمد على » على ظهر جواد ، وكان الـوقت يمضى به دون مـا حسـاب متسلقـا الهضـاب أو عـدوا فى الحقول ، وكان جسمه يتوافق فى حركته مع حركة هذا الجواد كأنهما جسم واحد .

كان يحدو محمد على الأمل فى تحقيق النبوءة التى مـازال يتردد صداها فى صدره وعقله بأنه سيرقى ذروة المجد والعظمة ويبلغ مرتبة الحكام والملوك ، وكان برغم هذا الشعور بإمكانياته ومواهبـه التى حباها الله إياه ، فكان محمد على يرنو ببصـره فى اتجاه الشـرق إلى الآستانة حيث قصر السلطان والباب العالى « توب كابى » فالمسافة بين قوله حيث منزل محمد على والاستانة (استـانبول) لا تتعـدى ٣٨٠ كيلو مترا أى مسيرة يوم يوم أو يومين على ظهر راحلة ورغم أن المسافة قصيرة لكن الطريق طويل ، فهو مازال حدثا لا يعرفه أحد ولا يملك إلا أن يجد ويثابر وينمى قدراته . ويعلم نفسه بنفسه .

فى هذا الفلك الرحب الذى يضم قرية قولة وما حولها من حقول وتلال عليها مجموعات أشجار الصنوبر والسرو فى تشكيلات متناثرة

(١) نفس المصدر ص ١٣ .

أحيانا متجمعة أحياناً أخرى ، فى هذا الجو الشاعرى كان محمد على يقضى ساعات كثيرة ممتدة فى التمرين على المبارزة سواء بالخناجر أو بالسيوف وفى التدريب على التصويب بالقوس والسهام والتحطيب واستعمال الدروع وفؤوس الحرب والمصارعة ، وكذلك بَدَأ فى التدريب على استخدام الأسلحة الحديثة مثل البندقية والطبنجة والتى ظهرت مع مطلع القرن السابع عشر وعصر الاكتشافات والثورة الصناعية والاستعمار .

إلى أن سنحت له الفرصة بعد ذلك فى دائرة عمل أكبر وأوسع ليبرهن على شجاعته فى حوادث كثيرة حدثت فيما بعد وأهمها المشاركة فى إخماد الاضطرابات .

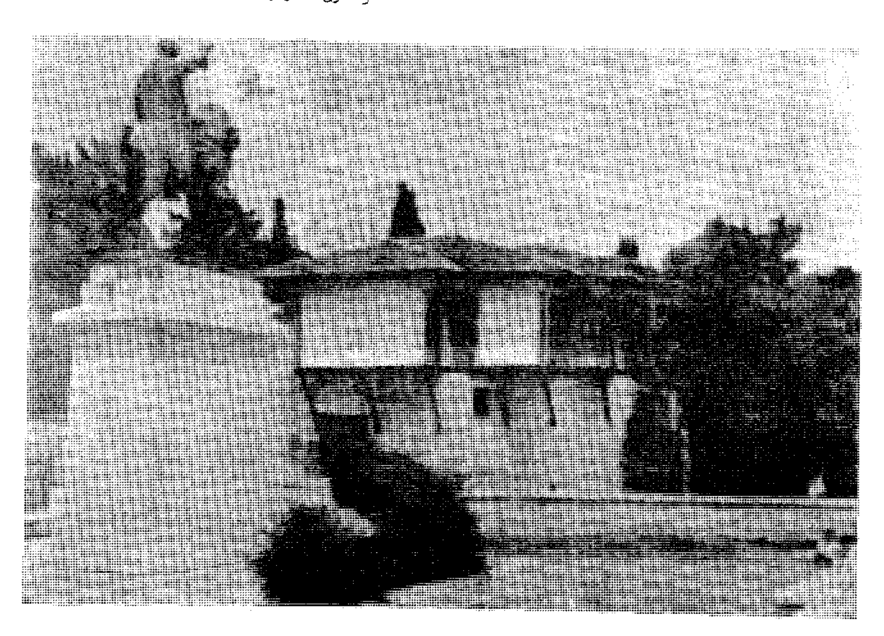
فقد كانت الاضطرابات تعم ديار السلطنة ، وخصوصا أطرافها ، كما استعرضنا ذلك فى الفصول السابقة ، ولا تكاد تخمد ثورة فى مكان إلا وتتفجر فى مكان آخر ، وقويت شوكة القراصنة فى معظم أطراف وشواطىء السلطنة ، وكان بحر إيجة الذى يشمل الجزر العديدة ومنها منطقة وشواطىء قوله ، وقد انتابتها أحداث عبث هؤلاء القراصنة .

وصدرت الأوامر إلى طوسون أغا عم محمد على الذى كفله بعد موت والدة إبراهيم أغا ـ كما زكرنا من قبل ـ بالبحث عن هؤلاء القراصنة ، وتحت مسئوليته الشخصية على رأس قوة من خير جند حرس الحدود ، والتى كانت مسئوليتها أمن المنطقة فلم يتردد طوسون أغا فى تجهيز الحملة بقيادة ابن شقيقه الفتى الشاب محمد على وعرض الأمر على حاكم قوله لكى يوافق على خطته وعلى أن يقود الحملة محمد على[1] الذى كان مشهودا له بالشجاعة ـ فقد كان فارسا

(١) نفس المصدر ص ١٤

ميدان محمد على ويظهر وسطه تمثال محمد على

والمنزل الذى ولد فيه

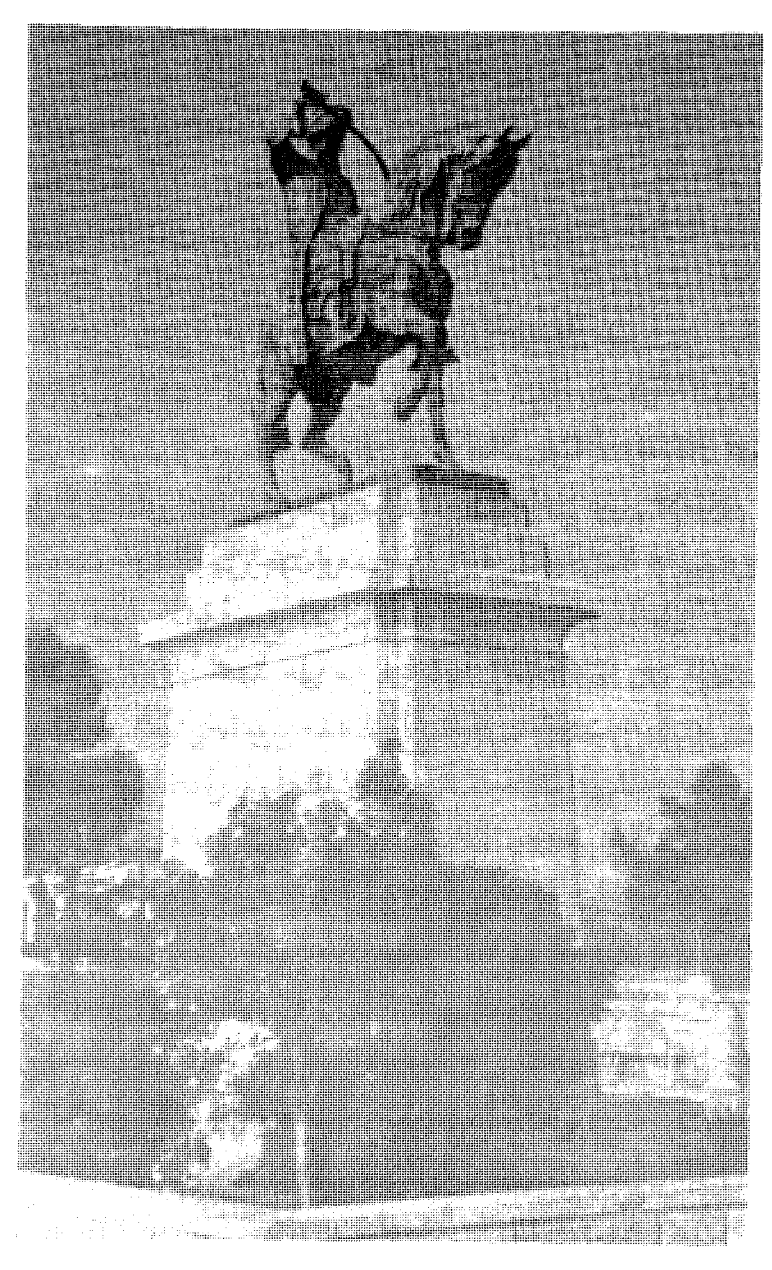


ومقاتلا جريئا ــ أهلته تدريباته مع نفسه وأقرانه عـلى الكر والفـر والقيادة والزعامة ، ووافق حاكم قولة على أن تكون الحملة بقيادة محمد على برتبة ملازم تحت الاختبار وكانت درجة الضباط مقصورة على أبناء الطبقة الارستقراطية ، وأبناء الطبقة المتوسطة القيام بدور الجنود ، أما أبناء العبيد أو أبناء الفلاحين فكان محرماً عليهم شرف الخدمة فى جيش السلطان ، وكان محمد على ينظر إلى ضباط الجيش العثمانى المنطلقين إلى معسكراتهم مرفوعى الرأس يخطرون فى زهو فى ملابسهم الرسمية بإعجاب ولم يكن يحلم أن يكون واحداً منهم .

وها هو أخيراً أصبح ضـابطا فى جيش السلطان ، يشـار إليه بالبنان من أهل قريته ، هكذا أصبح فى أول الطريق لتولى القيادات العليا ، ولا يدرى ما يخبئه له القدر ، ولا ما ستكشف عنه الأيام .

وسار محمد على فى طريقه يتلفت حوله ، يترقب النظرات وهى تتجه إليه . . . أهل قريته : التجار وهم فى طريقهم إلى السوق ، والفلاحون وهم يعملون فى حقولهم والرعاة بقطعانهم فى الوديان . . هذا ويتأمل محمد على الزرع والأشجار والطيور والدواب والأنعام ويقلب وجهه فى السماء إلى الأفق . . كان شغوفا بأن يقود هذا الفلك الـرحب إلى الأفضل ، إلى السـلام الدائم بـدلاً من هذا الشغب المستمر والقلاقل ، التى تحيط بقريته وما حولها . . .

ويتحدث محمد على عن هذه الفترة فيقول : أما أنا فلم يكن فى وسعى أن أشتهى خيرا من ذلك فما كاد الأمر يصدر إلى والشروع فى مهمتى حتى خرجت حالا للبحث عن القراصنة فهـدانى الحظ إلى مقرهـم ، وبعد ما تعقبتهم مدة غير طويلة وفقت إلى اعتقالهم بسفنهم وهم أحياء فكوفئت على ذلك .



تمثال محمد على بالحجم الطبيعى ينهض على قاعدة ترتفع حوالى خمسة امتار ـــ والتمثال يطل على دار جنتكمان ـــ وهى الدار التى ولد فيها محمد على .

والتحقت ضابطا فى الأسطول العثمانى برتبة ملازم أول ، وكنت يومئذ فى العشرين من عمرى ، غير أن ترقيتى السريعة أثارت حسد الكثيرين ، ويغلب على ظنى أن عمى كان واحداً منهم[1] وما لبث أن مات عم محمد على طوسون أغا واستمرت العلاقة وطيدة بين حاكم قولة ، وبين الملازم أول محمد على .

كان حاكم قولة هذا صديقا لإبراهيم أغا والد محمد على عندما كان يعمل رئيسا لحرس الطرق بالمنطقة ـ تُوطدت هذه العلاقة أكثر ، حيث تزوج محمد على من كريمة حاكم قولة ، وقد كان محمد على لم يتجاوز العشرين من عمره . وكان أهل ديار الإسلام فى السلطنة حينذاك يتزوجون وهم صغار السن للمحافظة عليهم وعلى دينهم ، وفى رواية أخرى لكريم ثابت فى كتابه عن محمد على[2] ، أن حاكم قولة زوج محمد على من ابنة أحد أصدقائه . وقد كانت فى بسطة من العيش ، ومن هذا الزواج المبكر ، أنجب محمد على أول أولاده ، وفى نفس المنزل الذى ولد فيه محمد على فى قرية قولة رزق من زوجته أبنة توفيت فى ريعان الشباب ، وبعد ذلك رزق منها (ابراهيم باشا الكبير)* فى عام ١٧٨٩ ، وبعدها حياه الله بطفل آخر أسماه طوسون على اسم عمه طوسون أغا فى غضون عام ١٧٩١ ميلادية ورزقه الله فى سنة راجفة بطفل أسماه اسماعيل ؛ وبعدها رزق بابنته نازلى هانم ، وقد رزق محمد على خمسة وستين طفلا خلال حياته الطويلة . من عدة زوجات وكان أكبر أولاده الذكور القائد والفاتح العظيم ابراهيم باشا الذى ولاّه محمد على مصر فى حياته ،

(١) كريم ثابت ـ محمد على ـ مطبعة دار المعارف القاهرة ص ١٣ .

(٢) كريم ثابت مطبعة دار المعارف القاهرة ص ١٧

* مازال تمثاله موجوداً فى واحد من أكبر ميادين القاهرة والمسمى باسمه ميدان ابراهيم باشا « ميدان الاوبرا »

وكان اصغر ابنائه الذكور هو سعيد باشا الذى تولى مصر بعد عباس باشا بن طوسون باشا قائد حملة الوهابين الشهيرة .

وقد درج محمد على شأنه شأن موظفى الدولة المترامية الأطراف ورجالها فى أن يزاولون أعمال التجارة ، ليستطيعوا القيام بواجباتهم العائلية والاجتماعية ، إذ كانت المرتبات لموظفى الدولة ليست مستقرة ، وغير منتظمة علاوة على ضآلتها ، وذلك دفع بالعديد من موظفى الدولة إلى ابتزاز المواطنين ، ومضاعفة الضرائب والحسبة المقررة عليهم وبالعمل لحساب أنفسهم .

هذا الفساد كان يشغل ذهن محمد على وما وصلت إليه الامبراطورية العثمانية من فوضى وعدم إستقرار ، السلاطين يهلك بعضهم بعضا أحيانا بالقتل وأحيانا بالخلع . . ولكن مع تغيير السلاطين كان الفساد قائما . وعلى مرمى مسيرة عدة أيام وفى عاصمة فرنسا (باريس) كانت تتردد أنباء إلغاء النظام الملكى[١] . وإعلان الجمهورية الأولى وتمت محاكمة الملك لويس وإعدامه المفضلة (الجيلوتين) وأدى إعدام الملك إلى ثورات شعبية فى أوروبا ، وكانت مثار الكلام والهمس فى كل مكان ، وكان محمد على ينصت ويترقب ويتأمل ، وبعد حوالى ست سنوات من هذا الحادث الشهير ، استمرت خلاله السنين ملتهبة الأحداث وقامت الثورة الفرنسية وذلك فى ١٤ يوليو ١٧٩٨ ، واتجه الفرنسيون إلى سجن الباستيل الذى كانوا يكرهونه ــ فهو رمز السلطة المطلقة والاستبداد . . وكانت الجماهير غاضبة لطرد المصلح الاقتصادى بيكر . وقتلوا مدير سجن الباستيل الماركيز « دى لونى » وأطلقوا سراح من فيه وكان

(١) ألغى المؤتمر الوطنى الفرنسى فى ٢١ سبتمبر عام ١٧٩٢ النظام الملكى .

كلهم سبعة مساجين ، وكان هذا الحادث الكبير البداية الحقيقية للثورة بعد أن سبقه حادث اجتماع مجلس طبقات الأمة الذى تحول إلى جمعية وطنية . . .

هذا والمؤامرات كانت ماتزال تحاك فى أروقة قصر التوب كابى وقصر يلدز وباقى القصور على ضفاف البوسفور . . . وكانت الأحداث تتلاحق والكل يترقب من ملوك وأمراء وقواد وثوار فى كل أوربا وأيضا فى كل أطراف الدولة العثمانية . . . وكان يحدث ذلك إبان حكم السلاطين عبد الحميد وسليم خان وما قبلهما وما بعدهما من سلاطين ، حيث كان الفساد منتشراً والرشوة متفشية ، وكان محمد على يسمع وكأنه لا يسمع ويرى وكأنه لا يرى وكل هذا ولا يتكلم ، ويفضل أن يقوم ببعض الأعمال التجارية والمشروعات كل . ولا سيما فى تجارة الدخان التى استطاع منها تحقيق مكسب يغطى به تكاليف الحياة . وأخذت شهرة محمد على تطير فى آفاق البلاد لجدارته فى حماية المنطقة وتأمينها ، والضرب على أيدى كل من تسول له نفسه مخالفة النظام العام أو العبث به ، والامتناع عن دفع الضرائب مما يؤيد ذلك أنه قد بلغه ذات يوم أن أهل إحدى القرى التابعة لمركز قولة لم يخضعوا للسلطة وامتنعوا عن دفع الضرائب وأن رجال الحسبة والضرائب (الروزنامة) يلقون صعوبة فى تحصيل الضرائب التى تجبى منهم . فعرض محمد على على الحاكم مساعدته فى إقامة النظام والأمن وتأكيد هيبة السلطان فى هذه القرية وإعادة هؤلاء المتذمرين إلى صوابهم . وإيمانا من الحاكم فى حكمة محمد على وضع تحت إمرته قوة عسكرية وأطلق يده فى تحقيق هذه المهمة فأخذ

محمد على يعد عدته لتأديب هؤلاء المتظاهرين المتذمرين فى سرية تامة ، وبدون أن يعلم قواته بطبيعة العملية وتفاصيلها خشية تسرب أخبارها إلى أحد من أهل القرية .

وفى اليوم الذى قرر أن يضرب ضربته فيه ، أخذ قيادات جنده قبل أن يدخل القرية فجأة ، واتجه مباشرة إلى مسجدها وعكف على الصلاة ، وأرسل بعض جنده إلى أربعة من كبار القوم فى هذه القرية لمقابلته بحجة أنه يريد محادثتهم فى عمل هام ، فجازت عليهم الحيلة ، ولم يفطنوا إلى ما دبره لهم هذا القائد الشاب الذى لم يسبق له أن حادثهم (وكانت الحياة فى كل أرجاء السلطنة تعتمد على الرشاوى لرجال الدولة وكانت الرشاوى تسمى برطلة ، فكان يقال فلان برطل فلان أى أن فلان رشا فلان) فلم يأبهوا ولم يعيروا اهتماما ولم يشغل بالهم ، واعتبروه كمن سبقوه من السهل أن ينصرف ويتركهم وحالهم ببعض الهدايا ـ أو أن يغض الطرف بعدة أكياس من الدنانير الذهبية فهكذا ، كذا كان حال الدولة العثمانية ـ وما أن وصلوا قرب المسجد حتى أمر بالقبض عليهم ، وشد وثاقهم بالقيود الحديدية وساقهم فى اتجاه قولة فزادت ثورة الأهالى لهذه المعاملة ، إذ أنهم لم يتعودوا على ذلك فقد كان التسيب والمحسوبية منتشرين فى البلاد ، والفوضى تضرب بأطنابها . فبدأوا يصيحون ويهددون ويتوعدون ولم يرضخ محمد على لهذا التذمر بل قال لهم فى الحال . سيتم إعدام الزعماء الأربعة إذا إستمروا فى الصياح والهياج وهذا التهديد[1] ، وكذلك فى حالة أصابه أى من رجاله بسوء وإنه فى المقابل لن يطلق سراح أى من الأسرى الأربعة إلا بعد أن يدفعوا

---

(١) نفس المصدر ص ١٥ .

الحسبة المطلوبة منهم من ضرائب ، ومنذ ذلك اليوم ذاع صيت محمد على فى منطقة قولة وما حولها ولم يجرؤ أحد على أن يمتنع عن دفع ما تطلبه منه الحكومة من حقوق لها . لقد كان الذى حققه محمد على نجاحا جديدا ، يضاف إلى النجاحات السابقة التى حققها ، فجعلت الحاكم يزداد إعجابا به وتمسكا بخدماته ، لذكائه وشجاعته وسعة حيلته ، فألحقه كمساعد لقائد الحرس فى قصره برتبة يوزباشى — وهى الرتبة التى تعادل نقيب حاليا — وبعد حين توفى قائد حرس حاكم قولة وما حولها فأصبح محمد على قائد حرس حاكم قولة وما حولها برتبة صاغ قول أغاسى وهى الرتبة التى تقابل رتبة رائد حاليا ، وكانت هذه الوظيفة هى بداية الدرجات العليا فى جيش الامبراطورية العثمانية .

ومع وصول قوات الاحتلال الفرنسى إلى مصر فى غضون عام ١٧٩٨ ميلادية بدأت الدولة العثمانية فى تجهيز حملتها لمقاومة تقدم الفرنسيين داخل الاراضى المصرية[١] ، بل واخراجهم من مصر فصدرت الاوامر الى كل منطقة تقدم بأن عددا من الرجال المدربين وكان حينئذ يتربع على عرش الدولة العثمانية السلطان سليم خان بن شقيق السلطان عبد الحميد السلطان السابق له والذى توفى فى عام ١٧٩٦ م ، وكان على منطقة قوله أن تقدم فصيلة مؤلفة من ٣٠٠ مقاتل بسلاحها وكامل هيئتها .

فبدأ حاكم قولة فى إعداد الوحدة العسكرية بالعدد المطلوب وتجهيزها وكان طبيعيا أن يكون محمد على من أفراد هذه الوحدة العسكرية ، وبالغ حاكم قولة فى إظهار ولائه للسلطان سليم خان ،

(١) الهيئة العامة للكتاب — مركز تحقيق التراث — الخطط التوفيقية — الجزء الاول . على باشا مبارك . طبعة ١٩٨٠ (ص ١٥٨ — ١٥٩ — ١٦٠) .

فعين نجله وكان اسمه على أغا قائداً للفصيلة المتجهة إلى مصر . . .
واختار محمد على مساعدا ومستشارا له برتبة صاغ قول أغاسى فى الجيش العثمانى[٢] .

بدأت الوحدة تتحرك من منطقة قولة ، متجهة إلى إحدى القواعد البحرية على بحر إيجة حيث السفن الكبيرة راسيه بجانب إرصفه الميناء الحربى الكبير ، وكذلك بعض السفن حاملة الحبوب والانعام قادمه من الاقاليم والامصار ، والولايات المختلفه من أنحاء الامبراطوريه ،والسفن الحربية تهيىء مدافعها إلى الخوض فى غياهب البحر ، ويقوم الجنود بأعمال الصيانه . وبمراجعة كل جزء على حده ، هكذا . . . . يضج الميناء بالحركة ، جنود يودعون وآخرون مصطفون فى صفوف منتظمة على إمتداد أرصفه الميناء ، حيث مخازن الغلال والبقول وكل ماتحتاجه السفن فى حملاتها العديدة . . . وكذلك مخازن الاسلحه والمهمات ، وأيضا ترى الاوناش التى ترفع المثقلات من تموين وذخيرة ومهمات وأسلحه ، إلى ظهر السفن.

وكان الاسطول المهيأ للابحار إلى الاسكندرية يجهز نفسه ، النوتيه على اعالى الصوارى يفردونها ويطوونها مرة أخرى ، والجنود يراجعون الذخيرة وكل مايلزمهم من احتياجات هذه الحملة ، ورجال التموين يراجعون الطعام والأشياء الأخرى اللازمة للرحلة .

وكان محمد على يقوم بتجهيز ، كل ما يلزم لوحدته من ذخيرة وأسلحة ويراجع هيئة كل جندى وسلاحه وزخيرته ، ويراجع الاعداد والخيام والمهمات والطعام ، وبعد أن انتظم كل شىء ،

---

(٢) كريم ثابت ـ محمد على ـ مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ـ ص ١٨ .

وعرف كل جندى مكانه واطمئن محمد على على جنوده ، أخذ موقعه فى مقدمة سفينة القيادة وقد بدأ النوتية فى فرد القلوع ورفعها ، وانطلقت السفن ببطء من المرفأ وأشرعتها العديدة وأعلامها ترفرف من أعلى الصوارى الصنوبرية . . . وبدأت الاشرعة تتلقف الهواء وتدفع المياه إلى الخلف ، وأخذت السفينة وضعها متجهة خارج الميناء وفى اتجاه الجنوب مع الرياح المتجهة إلى مصر ، الهدف الذى يبعد ثلاثة أسابيع ، فى رحلتها المضنية عبر بحر إيجه الذى يعج بالجزر المتناثرة والصخور المختفية والمتخفية ، وبعد عشرة أيام من الإبحار الحذر ، خرج الاسطول إلى البحر المفتوح ، البحر الابيض المتوسط ، وكانت السفن تتقدم ومن بينها السفينة التى يعتليها محمد على ، ومع كل دفعة ريح تلفح وجه محمد على ، كانت الآمال تتجدد وتدفع الدماء إلى رأسه ، وتجعله يفكر . . . وكانت سفن الأسطول تمضى فى تشكيلاتها التى تكون رأس حربة متجهة إلى مصر فى شكل مروحى . وتنشر جناحيها على مدى البصر ، رافعة أعلامها ، كانت سفن الأسطول تقترب من بعضها كأنها طائر وديع يطوى جناحيه مع مغيب شمس كل يوم واختفائها فى مياه البحر حيث يصبح البحر كتلة ظلام . . . وكان الأسطول بذلك يحمى نفسه من غيابات الليل والبحر وظلماته ، ومع طلوع شمس كل يوم كانت القافلة تفرد جناحيها فتبتعد السفن بعضها عن بعض فى تشكيل رائع تستطلع أرجاء البحر ، حيث يدب النشاط فى رجال الأسطول والنوتية فيفردوا القلاع متسلقين الصوارى مستطلعين بالمناظير المكبرة أو بالعين المجردة ، ما يخبئه الأفق الواسع ، كان البحر الأبيض المتوسط حينئذ يعج بالأساطيل ، التى تلاحق بعضها بعضا فى مغامرات مثيرة .

فقد كان الأسطول الانجليزى يلاحق الأسطول الفرنسى تارة والأسطول الفرنسى يلاحق الأسطول الإنجليزى تارة أخرى . . . .

كـان الأسطول العثمـانى يقترب من هـدفه وبـالتحـديـد إلى الاسكندرية لتدعيم الفرقة الألبانية المنوطة بطرد القوات الفرنسيـة بقيادة نابليون بونابرت . . . على أمل مساعدة القوات الإنجليزية لهم بقيادة نلسن .

وصول محمد على إلى مصر

وقد عرض نلسون على محمد كريم أن يسمح للاسطول البريطانى بالبقاء فى عرض البحر للدفاع عن مدينة الاسكندرية ــ ضد الفرنسيين .!! .. على أن يبيع لهم الطعام والماء بأى ثمن ... ولكن محمد كريم اعتذر عن مطالبهم واغراءهم وقال لهم : « إن هذه البلاد بلاد السلطان ... لا تستطيع السماح للفرنسيين أو لغيرهم بإحتلالها ..»

محمد كريم فى عام ١٧٩٨ م .

وصول محمد على إلى مصر

بدأت الشيخوخة تدب فى أوصال الامبراطورية العثمانية . فى الوقت الذى بدأت فيه الدول الأوربية تنهض وتنتعش وتنهش فى أطراف الامبراطورية ، ففى الشرق إغتصب قيصر روسيا الأجزاء الأسيوية ، وهى بلاد فيما بين النهرين التى تسمى حالياً الجمهوريات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى سابقا وتشمل : تركماستان ، قرغزيا ، القاشفير ، طاجيكستان ، شبه جزيرة القرم ، أذربيجان وكذلك أرمينيا

وفى الغرب بدأت الامبراطورية النمساوية تهدد الخلافة العثمانية فى اقتطاع الأجزاء الأوربية مثل رومانيا ، بلغاريا ، وأجزاء من يوغسلافيا وألبانيا واليونان بشراهة لاتشبع ونشاط لايكل .

وبطبيعة الحال كان وراء هاتين الامبراطوريتين كل الدول الأوربية بتشجيع من البابا فى روما من أجل القضاء على الرجل المريض ، كما كانت تركيا تسمى حينئذ ، وقد كان الصراع وقتئذ من ناحية أخرى فى البحار الدافئة بين الدولتين الكبيرتين البرتغال وأسبانيا ومن بعدهما انجلترا وفرنسا . وكان السبق هنا لانجلترا التى كونت شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٦٠٠م وتبعتها فرنسا

فـأقامت شـركتها فى عـام ١٦٦٤م . والشركتـان تمثلان جهـازين استعماريين ومهمتهـا السلب والنهب وقطع الـطرق والقرصنـة ، وانتهى الصراع بين الدولتين بخروج فرنسا من الهند جريحة دامية .

فى ذلك الوقت دق ناقوس خطر الاستشراق الذى هدد حضارة الشعوب الاسلامية واستخدم كسلاح جديد فى الصراع بين الدول ، فأسرعت انجلترا إلى سواحل الجزيرة العربية الشرقية والجنوبيـة ، وقد وضعت فرنسا نصب عينيها مصـر التى بدأ الضعف يـدب فى أوصالها وشاعت الفوضى والاضطرابات فى أرجائها ، وكانت فرنسا تبغى قطع الطريق على بريطانيا إلى الهند .

ولما كانت الظروف مهيأة تمـاماً لغـزو « مصر كنتيجـة طبيعية وحتمية للخلل والفقر والظلم الذى لحق بالشعب المصرى وتضارب المصالح بين المماليك والعثمانيين وكذا المصريين » فقد هوى نابليون كالصقر على قلب العالم الاسلامى وعقل الحضارة العربية فوصل إلى الاسكنـدرية فى عـام ١٧٩٨م الموافق لعـام ١٢١٣هـ[1] . بدأت المناوشات بين نابليون وبين مراد بك عند قرية الرحمـانية ، وتمكن الفرنسيون من قهـر المماليـك ، ودخل جنـود الاحتلال الفـرنسى البيوت ونهبوا مافيها بدون مبالاه ، ووقعت زوجات الأمراء المماليك فى أسر الفرنسيين وفدين أنفسهن بمبالغ كبيرة طبقاً لحالتهن ، فمثلا دفعت زوجة مراد بك ١٢٥ر٠٠٠ ريال فرنسى .

وهكذا أضحت مصر محاصرة بعديد من قوى السلب والنهب والفساد ، الأمراء الممـاليك والجنـود العثمانيـين والبدو والعـربان

(1) تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخـيار (الجزء الثانى) عبد الرحمن الجبرتى دار الجيل بيروت (ص ١٧٩)



صوره مراد بك (شيخ البلد) والمعاصر لوصول الحملة الفرنسية والذى قاومها عند وصولها وهزم هزيمة نكراء وفى نهاية عمره هادن الفرنسيين واثناء حكمه كانت مصر تعانى من البؤس والشقاء والحروب الاهلية .

[كتاب وصف مصر]

وجيش الاحتلال الفرنسى ، على أن اليد العليا فى هذا الصراع الشرس هذا كانت للفرنسيين[1] .

وعجز الشعب المصرى عن التصدى لهذا البلاء ، ولما كان البلاء الأكبر من نصيب القاهرة فقد قامت الثورة ضد هذا الظلم ، وقابلها الجيش الفرنسى بالمدفعية الثقيلة التى دكت القاهرة دكا . واستولى نابليون على القاهرة ، بعد هزيمة مراد بك فى إمبابة وهروب ابراهيم بك ، ودخلها بعد يومين من هزيمة الأمراء المماليك . وسكن نابليون بونابرت قصر مراد بك وسكن كل قائد قصراً من قصور الأمراء .

واصطحب نابليون معه العلماء المستشرقين ، وبدأ يداهن زعماء البلاد ويتملق الخاصة ، فلما رأى من الغالبية العظمى امتناعاً أطلق جنوده لتخريب كل شىء بما فى ذلك التراث والمقدسات . وأمضى نابليون أقل من عام على هذا الحال فى مصر كان يقتل خمسة أو ستة مع مشرق كل شمس ، حتى خرج إلى الشام وهزم وإنكسر فى عكا ، ثم عاد إلى القاهرة التى كانت تغلى غلياناً .

هذه الأمور جعلت نابليون يغادر مصر إلى فرنسا تاركاً الحملة إلى « كليبر » الذى زادت فى عهده الثورة وارتكب فى سبيل إخمادها ما ارتكبه من فظائع وظن أن الشعب قد دان له بالولاء فكانت نهايته القتل على يد سليمان الحلبى .

ونلاحظ أنه كان للعلماء المستشرقين الفرنسيين دور بارز ، إذ استطاعوا أن يمهدوا للحملة ويمدوها بالمعلومات فى ثلاثة أوساط من

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٠٢ وما بعدها)

«وكان الفرنسيون قد اغتصبوا أثناء احتلالهم للقاهرة الكثير من قصور القاهرة وأقاموا فيها سنة ١٨٠٠ مسرحاً للكوميديا ومطاعم وملاهى خاصة . وكان يشرف على بركة الأزبكية دوره حافلة بالمشربيات والشبابيك الخرط السائد فى أحياء القاهرة . وكانت مدرسة الألسن تطل على البركة . إلى أن تحولت إلى فندق للانجليز المارين بالقاهرة إلى انجلترا عرف فيما بعد بفندق شبرد وفى منتصف القرن ١٩ أمر محمد على بردم جزء كبير من البركة وإزالة الكيمان المجاورة لها لتقام التنزهات ...»

على مبارك : الخطط التوفيقية



المجتمع المصرى ، المماليك والأزهر والشعب المصرى بفئاته ، وقد كانت خطة العلماء هى وضع رؤ ية كاملة وواضحة عن الأحوال فى مصر خصوصاً عن الانهيار الاجتماعى والأخلاقى ودور المماليك فيه ،حيث أن المماليك هم الأساس فى هذا الحكم الفاسد الذى أصاب البلاد ، يبيعون كل شى من أجل المال .

وكان نابليون يضع خطته على أساس اعتقاده بأن المماليك هم مفتاح هذه البلاد ، وقد رتب مع كليبر خليفته على إرسال عدد من المماليك (فيما بين ٥٠٠ مملوك إلى ٦٠٠ مملوك) إلى فرنسا ليكونوا مبعوثين (أو رهائن) لسنتين أو ثلاث سنوات يشاهدون فيها عظمة فرنسا ويعتادوا تقاليد الفرنسيين واللغة الفرنسية فيعودوا إلى مصر ليكونوا بمثابة نواة لقوة جديدة تعمل لحساب فرنسا فى مصر .

وفى نفس الوقت كانت تعقد الصفقات من ناحية انجلترا مع جناح آخر من المماليك وعلى رأسهم الألفى بك ، ولهذا الموضوع قصة أخرى تعود إلى المنافسة والصراع بين بريطانيا وفرنسا وحالة التربص بين كل منهما . فقبل وصول الاسطول الفرنسى وصل الاسطول البريطانى بقيادة « نلسون » وألقى بمراسيه فى المياه الاقليمية المصرية قبال الاسكندرية ليتجسس أخبار الاسطول الفرنسى عن طريق جواسيسه وعملائه من المماليك ، وكانت السفن البريطانية قد خرجت تتعقب غريمها اللدود لتغرقه فى مياه البحر الأبيض (المتوسط) ، وكان مشهد المطاردة مثيراً حيث كانت المسافة بين الاسطولين لاتتجاوز أحياناً مرمى البصر ، وشاء القدر أن يفلت الاسطول الفرنسى من المطاردة فى عرض البحر لتكون نهايته المأساوية فى خليج أبى قير .

وقد وصلت أخبار حملة نابليون بونابـرت إلى الاسكندريـة عن طريق بعض القباطنة الذين شاهدوا الاسطول الفرنسى فى مـالطة وعلموا من بحارتها أن محطتهم الأخيـرة الاسكندريـة . وحينذاك ثـارت حفيظة أهـل المدينـة وبدأوا يستعـدون لملاقـاة الفرنجة ، وينفضـون عن أنفسهم غبار الكسـل الذى تـراكم عليهم سنوات طويلة صدأت خلالها بنادقهم وشاخت مدافعهم وتهدمت الأسوار والقلاع من جرّاءالإهمال . وبهذه الروح المتوترة إستقبل السيد محمد كريم نائب الاسكندرية وفد الاسطول الانجليزى الذى سـار على الشاطئ ليحذر أهلها من مداهمة نابليون لهم .

وقد عرض « نلسون » على « محمد كريم » أن يسمح لهم بالبقاء فى عرض البحر للدفاع عن المدينة على أن يبيع لهم الطعام والماء بأى ثمن . ولكن « محمد كريم » عتذر عن مطالبهم وإغرائهم وقال لهم « أن هذه البلاد بلاد السلطان ولا نستطيع السماح للفـرنسيين أو لغيرهم باحتلالها »[1] .

ولم يشـأ الانجليـز أن يـطول الجـدل بينهم وبـين نـائب الاسكندرية ، وخاصة بعـد تعبئة شعـور أهل الاسكنـدرية ضـد الفرنسيين واستنفارهم من أجل الدفاع عن بلدهم . وقد كان كل هم الانجليز هو تعقب الاسطول الفرنسى ، فغادروا المياه المصرية فى اتجاه سواحل الشام يوم ٢٩ يونيو سنة ١٧٩٨م . وفى اليـوم الثانى مباشرة كانت السفن الفرنسية تحط رحالهـا فى مياه الاسكنـدرية . واقتربت إحدى السفن من الشاطىء لتحمل قنصل فرنسا الذى أبلغ نـابليون بمـا كان من أمـر الاسطول الانجليـزى ، وموقف نـائب

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٧٩ وما بعدها)

الاسكندرية محمد كريم ، وقدم له تقريراً عن حالة التذمر التى انتابت الشعب لعلمهم بقدوم الحملة الفرنسية الوشيك وخاصة بعد أن استنفر قائد الاسطول الانجليزى عزيمتهم لقتال الفرنسيين ، وبذلك يتحقق للانجليز استنزاف قوة الفرنسيين من ناحية واستنفاذ قوة الدفاع المصرية من ناحية أخرى ، أى إنهاك كل من القوتين المتحاربتين .

وحمل المصريون السلاح دفاعاً عن وطنهم ، وسارع محمد كريم لابلاغ حكام القاهرة مراد بك وابراهيم بك بنبأ القوات الفرنسية التى نزلت الساحل فى اتجاه غرب الاسكندرية فى منطقة « الدخيلة » و « العجمى » ، وطالب بأقصى مايمكن من نجدة لمواجهة الأعداء ، ولكن الأمراء المماليك الذين كان كل همهم المنصب والجاه والمال ويعد العهد بينهم وبين البطولة والمعارك ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم ولم يصغوا إلى استغاثة أهل الاسكندرية وتركوهم مع زعيمهم محمد كريم يواجهون الاسطول الفرنسى بمدافعه الحديثة ، بما يحملونه من أسلحة بدائية بسيطة ، وبالرغم من ذلك ضرب أهل الاسكندرية أروع أمثلة الفداء وهم يحاربون الفرنسيين ويقاتلون من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت حتى أذلوا العسكرية الأوربية الصاعدة المتمثلة فى الفرنسيين . وقد بلغت المقاومة الوطنية قمتها عندما حاول نابليون أن يقتحم شوارع المدينة فكادت تصيبه رصاصة قاتلة أفلت منها بأعجوبة ، فلجأ إلى حارة ضيقة جداً تتسع لشخصين فقط يمران جنباً إلى جنب وكان يرافقه سكرتيره « بوربين » الذى يصف هذا المشهد العصيب قائلا : « وانهالت علينا طلقات الرصاص من إحدى مشربيات المنازل ، فتقدم الجنود نحو مصدر

هذا الرصاص فوجدوا رجلا وزوجته قابعين خلف هذه المشربية وهما مستمران فى اطلاق النار ، فأنهى حياتهما جنود نابليون على الفور »

أما نائب الاسكندرية السيد « محمد كريم » فقد ظل محتمياً مع فريق من أهل الاسكندرية الشجعان فى قلعة قايتباى حتى خارت قواهم ونفدت ذخيرتهم ، ورأى السيد محمد كريم أن المقاومة أصبح ميئوساً منها . فكف عن القتال وسلم الاسكندرية ، فكانت بسالته محل إعجاب نابليون ، فتلقاه لقاء كريماً وأبقاه فى منصبه حاكماً مدنياً للاسكندرية على أمل أن يتعاون معه ، ولكن آمال نابليون خابت بعد أن رفض محمد كريم التعاون معه وإرغام أهل الاسكندرية على دفع قرض إجبارى لسلطات الاحتلال الفرنسى ، فأسرها الجنرال كليبر حاكم الاسكندرية فى نفسه واتهم محمد كريم بالتحريض وألقى القبض عليه وأودعه سفينة القيادة ، وبعث إلى نابليون فى القاهرة يخبره بما فعل ، فبارك نابليون تصرف كليبر ، خاصة وقد عثر فى قصر مراد بك على الرسائل التى كان نائب الاسكندرية كتبها ليستنهض بها الحكام على مقاومة الفرنسيين ، وطلب نابليون من كليبر إرسال محمد كريم مقيدا فى سلاسل ، وغادر محمد كريم سفينة الاسطول الفرنسى فى مركب صغير أقله إلى رشيد ومنها إلى القاهرة ، وفى اليوم التالى مباشرة غرق الاسطول الفرنسى فى مياه خليج أبى قير بفضل القذف المستمر لحمم مدافع نلسون الكبيرة ، وكأنما شاء القدر أن يفلت محمد كريم من مذبحة الاسطول الفرنسى ليلقى مصيره فى مذبحه أخرى أعدها له نابليون عقاباً له على وطنيته وموقفه الصلب الشجاع وعدم تعاونه مع الاحتلال . فقد أعدت محاكمة صورية وحكمت على السيد محمد كريم بالاعدام رمياً بالرصاص .



تاجر سلاح في سوق القاهرة
رودلف ويسن القرن التاسع عشر

كل هذا كان يشاهده ويراقبه ويسمع أخباره الأسطول العثمانى وهو قادم من الشمال الشرقى للبحر الأبيض ، وبالتحديد من بحر إيجه من نقطة انطلاقه من القاعدة العسكرية البحرية فى بحر مرمرة ، وكان أحد ضباط هذا الاسطول هو الصاغ قول أغاسى (وهى رتبة تعادل رتبة رائد مشاة أسطول حالياً) محمد على ابراهيم أغا قائد ثان الفرقة الألبانية .

وما كادت الحملة تصل مصر حتى أختلى « على أغا » قائد الوحدة الألبانية بمحمد على وصارحه بأنه لايأنس فى نفسه ميلاً للحياة العسكرية وأنه قرر التخلى عن قيادة القوة ولأنه خير من ينزل له عنها فقد ولاه قيادة الفرقة . واستمر محمد على فعلا قائداً للفرقة على أحسن ماتكون القيادة وأبلى بلاء حسناً وكاد يغرق فى إحدى المعارك التى خاضها وكانت آخر معاركه مع الفرنسيين فى الرحمانية .

وعلى أثر جلاء الفرنسيين ذهب حسين قبطان باشا قائد الاسطول العثمانى فى البحر الأبيض المتوسط إلى خسرو باشا والى مصر حينئذ وقدم إليه محمد على مثنياً عليه لكفاءته وبما أبداه فى معركة الرحمانية من شجاعة وفدائية فى منازلة الفرنسيين ، وأخبره أنه يعتمد عليه[1] وتم ترقية محمد على إلى رتبة قائم مقام قول أغاسى وهى الرتبة التى تقابل عقيد حالياً ، ولم يكن يتعدى الثلاثين عاماً ، وعين قائداً للوحدة التى كان قائداً ثانياً لها من قبل ، وهى الوحدة القادمة من « قولة » ضمن قوات الفرقة الألبانية المنوطة بحماية مصر من أى اعتداء خارجى أو سيطرة داخلية مثل المماليك أو أى انتفاضة شعبية ضد الحكم العثمانى .

---

(١) كريم ثابت : مرجع سابق (ص ٢٢)

وهكذا وصل محمد على إلى مصر ويبدأ يشق طريقه بقـوة على مسرح الاحداث مزوداً بطموحاته وامكانيـاته ومستنيـراً ويذكـائه ومستنداً على نجاحاته السابقة . كل ذلـك فى إطار منـاخ سياسى واقتصادى واجتماعى مشحون بشتى أنواع المثالب التى من شأنها أن تقوض دعائم أى نظام حاكم ، فماذا هو بفاعل ؟ وكيف تسنى له أن يرتقى إلى كرسى الحكم فى مصر ؟

وصول محمد على إلى الحكم

١٨٠٠ = ١٨٠٥

إن حسن الطالع أشبه شيء بالعاصفة فإنها تسير السفينة نحو الميناء ، ولكن إذا لم يكن الربان . ماهراً تحطمت السفينة بسهولة .

محمد على

وصول محمد على إلى الحكم
١٨٠٠ ـ ١٨٠٥

نتناول فى هذا الفصل وصول محمد على إلى كرسى الحكم فى مصر ، وكذا الحياة الاجتماعيـة آنذاك والتى كـانت امتداداً لحكم الممـاليك ومـا ساده من اضـطراب وقلق استمـر إلى عهـد الحكم العثمانى المتدهور . وقد كان على رأس نظام الحكم فى مصر الوالى المعين من قبل السلطان ، أو ماكان يكنى بالباب العـالى ، « توب كابى » وكانت طبقة المماليك بنظامها الراسخ تتمثل فى زعيمهم الذى كان يسمى بشيخ البلد هى الطبقة التى كانت تتحكم فعلاً ، فجاء النظام العثمانى ولم يستطع أن يغير من سيطرة طبقة المماليك شيئاً ، فقد كانوا مسيطرين على كل نواحى الحياة وأرزاق الناس ولهم أدوات عديدة وسبل متنوعة لجلب المال لأنفسهم والمتاعب للناس تتمثل فى جباية الضرائب والمكوس وتجارة الرقيق وتجارة الترانسيت وكان هذا النظام الراسخ الأركان يصل بجذوره الممتدة إلى النجوع والقرى فى الصعيد والكفور والتلال المنتشرة فى الدلتا وامتداداً للمدن والثغور المنتشرة فى كل انحاء البلاد . وغير طبقة المماليك والاتـراك كانت

هناك طبقة الشعب المصرى بكامل فئاته من فلاحين وصناع وتجار وعلماء بما فيهم من قادة فى السياسة والدين . وقد كانت كل هذه الفئات لا تملك فى الأمور شيئاً ، فالكلمة الحقيقية كانت للأمـراء والمماليك .

وقد كان خسرو باشا مدينا لقبطان باشا بالمنصب الذى قلده ، فاطمئن إلى النصيحة التى أسداها إليه ـــ واصطفى محمد على ـــ فلم ينقض على معرفته له غير وقت قصير حتى أتيح له أن يمتحن مواهبه فرقاه إلى رتبة لواء وكان عمره حينذاك لا يتعدى الثلاثة وثـلاثون عاما ـــ فأصبح محمد على ثان القواد الألبانيين فى المقام والرتبة ، أما الأول فكان طاهر باشا المعروف بطاهر باشا الأرناؤ طى .[1]

ولقد كان خسرو باشا نموذجاً للسلبية ـــ وكان سهل الأنقياد ، ضعيف المشيئة فكان سهلاً عليه أن يغدر فجأة وان يقطع الرقاب لمجرد وشايه . وفى عام ١٨٠٢ م الموافق لعام ١٢١٦ هـ عين واليا على مصر (حسين قبطان) الذى تحالف مع قبطان باشا وهو قائـد اسطول الدولة العثمانية فى البحر المتوسط والمسئول عن قيادة الجيش والأسطول ايضا فى شرق البحر المتـوسط وقد كـان هذا التحـالف بغرض القضاء على الأمراء والمماليك .

وما أن نزل جيش الأسطول العثمانى فى ميناء الاسكندرية وقد اتحدوا مع الوالى كتخذا حسين باشا قبطان ـــ كما ذكرنا سالفا ـ حتى أحس الأمراء المماليك بهذا التحالف وتمكن كبار هؤلاء الأمراء من النجاة من المعركة بعد أن قُتل منهم الكثير ـــ ولحقوا بالانجليز الذين كانوا بثغر الاسكندرية حينئذ وبلغ ذلك محمد بـك الألفى ـــ وهو

بالأقاليم القبلية فأظهر العصيان ـ فتتبع الباشا مماليكه واتباعه ـ وكذلك مماليك الأمراء وأتباعهم بالقتل والنهب وسبى حريمهم ونشأ عن ذلك ما نشأ من المفاسد المعتادة لهم(١)

وتولى بعده محمد باشا والذى أخذ فى قمع مفاسد العسكر وشدد فى عقابهم وكان يطوف الحارات ليلا بنفسه ومعه طاهر باشا - وكان يقتل لأقل ذنب .

واتخذ الوالى الجديد محمد باشا جملة من العبيد وأسكنهم بقلعة الظاهر وسماهم بالنظام الجديد ، واهتم بعمارة مسجد السيدة زينب رضى الله عنها .

ومع ذلك كان غشوماً جهولا عجولا فى أموره محباً فى سفك الدماء ومع ذلك لم تسكن ثائرة الأضطرابات والقلاقل فقد كان الأمراء فى الجهات القبلية على الدوام يشنون الغارات على البلاد - حتى نهبوا الفيوم وقتلوا كثيرا من أهل هذه البلاد - وكذا الجيزة وبنى سويف وتقابلوا مع العساكر العثمانيين فى دمنهور فوقعت بينهم موقعة كبيرة انهزم فيها العثمانيون ، فكانت الحرب الأهلية تعم جميع انحاء القطر وفى غمار هذا الخراب ، قام الجيش العثمانى بالهياج وهجموا على الدفتر دار وبيت المحروقى وذلك لانقطاع مرتباتهم [جوامكهم] ، وصار الباشا يضرب عليهم بالمدافع من القلعة حتى ضرب خط الأزبكية ونهب ما فيها ، وعملت متاريس عند رأس الدراقين والعقادين والمشهد الحسينى ورتبت الحراسة بالجنود بجامع أزبك وبيت محمد على ومناطق متفرقة من القاهرة وكان هناك على

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٢) .

الساحة السياسية فى مصر آنذاك قائد القوات الألبانية طاهر باشا الأرناؤطى ـ وكان يعتبر أقوى رجل فى مصر ، وذلك بإمكانياته العسكرية . وقد كان طاهر باشا طموحاً بطبيعته ـ فكان يرقب الظروف لينقلب على الوالى ، فكان شهر ابريل لعام ١٨٠٣ م ـ وفى ذلك الوقت أيقن أن الجنود مستائين من معاملة خسرو باشا لهم ، وكذا من تصرفاته فضلاً عن نقمتهم عليه لتأخره فى دفع مرتباتهم فرأى الفرصة مواتية للتخلص منه ليخلو له الجو . وهكذا كان الكل يطمع فى كرسى حكم مصر .

ـ ولقد كان محمد على يراقب كل هذا ويتأمله ويقيس ويحلل المتغيرات والقوى الثائرة . وكذا مراكز القوى ومدى قوتها . وأقام طاهر باشا وأحضر مدافع من القلعة ودار القتال بين الجنود العثمانيين وجنود الأرناؤطى بالقاهرة وبولاق والقصر العينى ـ وانهزم الباشا فى منطقة جزيرة بدران ومنها توجه إلى دمياط فكانت المدن كلها حرويا ونهبا ، قتلاً وتخريبا ولقد قام طاهر باشا بوصفه قائمقام بمصادرة ممتلكات الناس من مسلمين وغيرهم وأغدق على الأرناؤط وصرف مرتباتهم [جوامكهم] ولم يعط الإنكشارية فقاموا عليه وقتلوه فكانت مدته فى السلطة ستة وعشرين يوماً[1] .

فى هذه الفترة كان بالديار المصرية أحمد باشا متوجهاً إلى المدينة المنورة واليا من قبل الدولة ، فعينه الجنود واليا على مصر فلم يرض بذلك محمد على فقام وملك القلعة وحضر إليه الأمراء القبلية ، وانضموا إليه ، وتفرقوا فى حارات القاهرة ، وملكوا بابى النصر

(١) على مبارك ـ الخطط التوفيقية ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٨٠) (ص ١٦٤)



صورة توضح الحياة الاجتماعية فى اسواق القاهرة ـــ وتظهر مظاهر الكساد التى كانت سائده مع .
نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر مع وصول محمد على إلى مصر .

والفتوح ، وضربت المدافع على بيت أحمد باشا بالدوادية ، فتفرق عنه الانكشارية وأمر بالخروج من مصر .

وعندما خرج نهبت العساكر بيته ، ولما فارق باب الفتوح رأى نفسه قد وقع فى وسط الجنود فلم يسعه إلا الالتجاء إلى قلعة الظاهر ــ فدخلها محمياً بها وترك البلاد فى هدوء وفى تلك الاثناء صفا الزمن لمحمد على وجنود الأرناؤطى الألبان .

ولقد اشتد الغلاء فى تلك السنة بسبب انخفاض النيل وعدم امكانية الرى وعربدة الطغاة فأصبح القصر بلا حاكم . وفى الوقت نفسه رفع الجنود لواء العصيان بسبب عدم صرف المرتبات فإتفق الرأى على توزيعها على الطوائف والتجار وجعلها درجات أو بمفهوم العصر شرائح ، أعلى شريحة وصلت إلى خمسين كيساً ، وأدناها خمسة أكياس[2] فوزعت كذلك وشدد فى طلبها فأغلقت الحوانيت وتعطلت الأسواق ووقف البيع والشراء ونهب العسكر بيوت الافرنج فحدثت معركة كبيرة فيها وجرح الكثير من الفريقين واشتد الخوف بالجماهير واشتكى قناصل الدول الأوربية للدولة العثمانية[1] .

وقد كان محمد على يراقب كل هذه الأحداث ولا يظهر ما يدور فى عقله لأحد ممن حوله ، وكان يقف محايداً إزاء المعارك المشتعلة بين الأطراف العديدة ، ويظهر دائماً بالوقوف مع الضعيف ولا يبغى إلا المصلحة العامة ــ ومصلحة المسلمين وديار الاسلام وكان دائماً صديقاً لكل الأطراف ، مما حبب فيه الجميع حتى المماليك أنفسهم

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٦٥) .

(٢) كان الكيس يحتوى على ١٠٠٠ دينار .

وهم الذين يتسمون بالغدر والخيانة وكان يواسى المنكوب ، ولا يهمل أمر أحد .

حدث كل ذلك وهو يترقب الفرصة ويسير بتعقل وسياسة — وإذا كان البرديسى إذ ذاك القوى فيهم فقد تحالف معه ، وجرح كل منهما نفسه وشرب من دم الآخر تمكينا للأخوة على زعمهما ، ولكن لما كان يرى من سوء سيرتهم وطيش عقولهم ، ويعلم أنهم مخذولون وأن أمرهم لا يتم — فكان يراعى الأهالى ، ويواسى العلماء ويتواضع لهم ، ويتأدب مع وجوه الناس ويعاونهم بما فى وسعه فمالوا إليه وأحبوه[٢] .

ثم ان الأمراء اتفقوا فيما بينهم على إضمار العداوة للألفى بك — وذلك لتفوقه عليهم فخافوا على أنفسهم منه — فدس البرديسى لحاكم رشيد ان يقتله فأحس الألفى بذلك فاحتال حتى قرب من مصر واستطلع حقيقة الخبر ، وتوجه إلى الوجه القبلى وتبعه الألفى الصغير فنهب الأمراء بيوتهما وبيوت اتباعهما وحواشيهما — ولما رأى الأمراء كثرة وجوده فى الوجه القبلى ، خافوا تفاقم شره فجردوا (حملة عسكرية) وجعلوا بعض مصروفاتها على التجار وفرضوا الباقى على الامراء ووزعوا على القرى الغرامات الباهظة ، فكان هذا هولاً هائلاً فى جميع انحاء البلاد حتى قامت النساء بينهم وصبغن وجوههن وأيديهم بالنيلة .

وذهبت الوفود إلى محمد على يشتكون اليه حالهم لما كانوا يرون منه من الميل اليهم ، ووعدهم بما سرهم . وفى هذه الأثناء كثرت

---

(١) المصدر السابق (ص ١٦٦) .

(٢) نفس المصدر السابق (ص ١٦٧) .

بينهم وقائع البرديسى حتى قام عليه الجنود ـــ فما كان منه إلا الهرب إلى الصعيد ونهبا بيته وبيت ابراهيم بك بالدوادية وحدثت معركة بين الجنود ومماليك البرديسى وابراهيم بك[1] .

حينئذ صعد محمد على إلى القلعة وأقام بها ووجه المدافع إلى الدوادية ودك معظم مبانيها وانتهت هذه المعركة بخروج الأمراء الى الوجه القبلى ونهبت بيوتهم ثم حضر أحمد خورشيد باشا عام ١٨٠٤م الموافق ١٢١٩ هـ ـــ واليا على مصر ـــ وكان الغلاء قد بلغ منتهاه حتى وصل ثمن الاردب من القمح خمسة عشر ريال فرنسى ، ومازال الاضطراب مستمراً ، والعسكر قائمون والأمراء القبالى فى الوجه القبلى يعبثون فى البلاد وأحاطوا بالقاهرة وخربوا ضواحيها كبولاق والشيخ قمر والعدوى والوايلية ـــ فخرج إليهم محمد على وهم بجهة طره فحاصرهم وهم غافلون وأوسع فيهم القتل فانهزموا وتشتتوا فى الجهات وحصل بينهم وبين العسكر المتفرقة وقعات بجهة شبرا وأبى زعبل والخانكة وأعقب ذلك خراب تلك الجهات ولم تزل العسكر مع كل ذلك تقوم بطلب المرتبات [الجوامك] ويحصل منهم ما لاخير فيه ، والوالى كل مرة يضرب على الأهالى مبالغ يحصلها بأنواع الظلم وبينما كان محمد على يستعد للخروج إلى الأمراء فى الصعيد حضرت فرقة من جنود الدلاه من الشام ، فأراد محمد على أن يكونوا معه

فإمتنع الوالى وحدث خلاف بين الوالى ومحمد على ـــ وبينما هم فى هذا الحال من عدم الثقة ورد فرمان بتولية محمد على واليا على جدة فأظهر الامتثال ـــ وأخذ فى الاستعداد ـــ فإضطرب الجنود والأرناؤ ط وأيضا الشعب المصرى لعدم رضاهم عن مفارقته للأراضى

(١) المصدر السابق (ص ١٦٧) .

المصرية ، فهو فى الحقيقة كان أملهم ورجاءهم فى النجاة لما يرون منه من الحزم والمساعدة ــ فكان أن كتبوا إلى الدولة بأنهم ارتضوه واليا عليهم فاستجابت الدولة لذلك ، وصدر له الأمر بولاية مصر فى ١٢ مايو ١٨٠٥ م الموافق من أيام شهر صفر عام ١٢٢٠ هجرية وكانت ولاية محمد على طبقا لرغبات الأعيان والجميع من الشعب ، والبلاد فى ذلك الوقت أسوأ ما يكون فاليأس مطبق على الناس والكرب مسيطر وسلسلة الفتن محكمة ، وعقد الحوادث صعب حلها ، والاضطرابات منتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، ويغلب على العقول حب الأهواء ، والبدو تعربد فى النواحى وقطاع الطرق والجنود تنهب والأمراء والمماليك يعبثون فى البلاد وتخرب كل ما تتناوله بقصد فرض الاتاوات .

هذه هى حالة البلاد عندما تولى محمد على ولاية مصر فى مايو عام ١٨٠٥ م وكان عمره حينذاك يناهز الخمسة وثلاثون عاما فأخذ محمد على باشا الأمور بالجد والحزم وتصدى لحل تلك المشكلات المستعصية ، والفتن السائدة فبدأ فى استمالة قلوب المشايخ أصحاب الكلمة ــ كالسيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى والشيخ الدواخلى حتى صاروا معه قلبا وقالبا . فبدأ يقربهم منه ، ويستعين برأيهم فى الحوادث والنوازل ولم يزل يعالج الأمور بعقل واع وسياسة ماهرة . والوالى أحمد باشا مازال قابعاً بالقلعة معتصما بها ، ولم يلتفت الى أمر تعيين محمد على واليا على مصر ، بل تحصن بالقلعة فما كان من محمد على إلا أن قام الى القلعة ، وحاصر احمد باشا بقواته الألبانية ونتيجة لهذه الظروف المتردية وعدم وجود أموال لصرف (الجوامك) ــ أى

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٦٩) .

المرتبات للجنود ـ قام الجنود الألبان بالعصيان علي الوالى ، وتفرقوا عن محمد على ، وانتشروا فى القاهرة ينهبون ويسلبون . فكيف تستقر الأمور والحال هكذا ؟ فالفرق الألبانية هى أقرب الفرق إلى قلبه ، ولا عجب فى ذلك فهم جميعا عنصر واحد وقد تدرج محمد على فى الرتب وهم بين يديه ، وغادروا معه الديار فى البلقان إلى مصر ، ولاقوا الصعاب فى البحر وفى الديار المصرية قرابة الخمسة أعوام . وقد صار محمد على فى هذه الفرقة حتى وصل إلى قائد ثانى ثم قائدا لها ولقد كانت الفرقة الألبانية هى سلاح محمد على الوحيد ، ولكنه مع تلك الفوضى الضاربة لجأ محمد على الى المشايخ وإلى الشعب المصرى وبدأ يرتب معهم الأمور وجهزهم بالسلاح والعتاد وفى ذلك الوقت حضر من الآستانة مندوب (قابوجى) ومعه أمر لأحمد باشا الوالى السابق بعزله فلم يمتثل واستمر فى عناده ، وبعد قليل حضر قبطان باشا بأوامر تعضد ما سبق فلم يصغ أحمد باشا لكل هذه الأوامر ظناً منه أن كل هذه الأمور مناورات وشباك تنصب له وراسل الأمراء فى الوجه القبلى ، وطلبهم لمساعدته فوقعت بعض المكاتبات فى يد محمد على فأخذ حذره[1] .

وبعد أيام تسللوا إلى الجيزة ، وعبر بعضهم إلى البر الشرقى للنيل ، وحاصروا القاهرة ، ودخلها الكثير من الامراء والمماليك وأتباعهم من باب الفتوح والحسينية وتوجه بعض زعمائهم إلى السيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى ، وغيرهما يطلبون منهم المساعدة والنجدة والقيام بنصرتهم فلم يقبلوا منهم فخرجوا خائبين[1]

---

(١) المصدر السابق (ص ١٧٠) .

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٧٠) .



صوره توضح الشارع المصرى فى مدينة القاهرة (مصر المحروسه) فى نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر مع وصول محمد على إلى مصر [كتاب وصف مصر ــ الحملة الفرنسية]

وقد كان محمد على يراقب كل هذه الأمور ويتابع كل صغيرة وكبيرة ، فأرسل جنداً للقبض عليهم فسارع بعضهم بالهرب خارج القاهرة وأرسلوا بعضهم بالسكرية والدرب الأحمر وهرب بعضهم إلى جامع البرقوقية فاختفوا فيه وتسلق بعضهم من خلف أسوار الجامع فنجا ــ ومن اختفى بالمسجد دُل عليه ، وكانوا نحواً من خمسين رجلاً أحضرهم إلى داره وأعطى من قبض عليهم المنح والعطايا ــ وأمر بتنفيذ حكم الإعدام فيهم فوراً .

وهذا الأسلوب قد يبدو غريبا ، ولكن المناخ حينئذ كان يسمح بمثل هذه الإجراءات السريعة ، وهو ما يسمى حاليا بالأحكام العرفية أو الأحكام العسكرية التى تتسم بالسرعة فى الإجراءات والتنفيذ ــ ومع انتشار ذكر هذه الواقعة فى سائر أنحاء البلاد وأطرافها هابه الأعداء ، وقد كان يظن محمد على أن هذه الحادثة تفسد عليه ما دبره فكانت خلاف ما ظن ، إذ أدخلت الرعب فى قلوب اعدائه ، فخرج أحمد باشا الوالى السابق ، وخرج الجنود والولاة فى حالة عصيان هائمين على وجوههم ، وانتشروا بالجهات البحرية والدلتا ينهبون ويسلبون ، فوجه خلفهم حسن باشا الأرناؤ وطى ومحمد بك المبدول ، وعمر بك الأشقر بجنودهم ، فأجلاهم عن البلاد إلى الشام ، بعد أن جردهم مما سلبوه من الأهالى وأعطى كل ذى حق حقه .

وكانت أحوال البلاد سيئة كل السوء ، فالجنود الأرناؤ وط تنهب البيوت ، وتخطف ما يرد إلى البلاد من بضائع ويبيعوها بأغلى الأثمان ، وكان هؤلاء الجنود يتعرضون لنساء الأمراء المماليك اللواتى فى رغد من العيش بغرض تزوجهن كما كانت الجنود من كل

الفرق المتواجدة فى مصر تقوم بانتفاضات من أجل مرتباتهم . وفى ظل هذه الظروف كان تعيين السلطان لمحمد على واليا على مصر ويدون أى مقومات للولاية فالخزينة خاوية ، والجنود شاردون والإدارة خربة والحقول جدباء ، قد هجرها الفلاحون ، والمدن مهدمة هجرها الصناع والتجار[1] .

وهكذا كان الحال مع تولية محمد على السلطة فى البلاد ، فاتجه فكره أول ما اتجه إلى مصدر يدر دخلاً فنظر فى فكرة الالتزامات وتكلم مع العلماء فى ذلك ، فاتفق الرأى على أخذ ثلث الفائض منها ليصرف على شئون جنود الدوريات من مرتبات الذخيرة وجبخان وملابس لكى تستطيع هذه الفرق حماية مصالح الناس وأموالهم ، وكذا السهر على استتباب الأمن وراحة الشعب وبث السكينة فى ربوع البلاد . وهذا بالطبع لم يكن كافياً لإنقاذ أمن البلاد فاتفق مع المشايخ على أن يتم تحصيل الأموال وهى ضرائب الأراضى والعقارات عن السنة المالية القادمة وهى عام ١٨٠٦ م ، وعين لذلك الكشاف لتحصيلها ، وكان الكاشف بدوره يعين من طرفه المأمورين ومعهم قوائم بكل ما تحتاجه البلاد ، بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من قوائم البشارات وأوراق تقبيل اليد[1] ، وحق الطريق ولبس القفطان مع طلب العرب العلائق والكلف ، كل هذا تحت إشراف محمد على شخصياً ، وكان يراجع القوائم بنفسه مع الكشاف والمأموريين فكان محمد على يرى أن الاصلاح الحقيقى لابد وأن يتم فى الجهاز الحكومى وكوادره من حكام أقاليم وموظفين ، فكان حريصاً على تعليمهم وتدريب الموظفين الذين يقومون بالإدارة

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٧٠) .

وتحصيل الضرائب فى كافة أرجاء البلاد ، كل هذا الوالى يهادن الأمراء والمماليك .

وفى عام ١٨٠٦ م أى فى الوقت الذى لم يمض عام على ولاية محمد على قام الأمراء بتجميع صفوفهم بقيادة شاهين بك الألفى من الصعيد ، وذلك لمهاجمة محمد على باشا ونظامه فى القاهرة ، فسارع محمد على بتجهيز نفسه لصد هذا الاعتداء الغادر من هذه الحفنة الخائنة من المماليك .

وقد استطاع المماليك أن يهزموا محمد على فى امبابة ، وزحفوا إلى دمنهور ، ومنها إلى المنوفية فخربوا كل هذه البلاد ، وفى هذه الأثناء كانت الحرب الأهلية دائرة فى مناطق متفرقة من الصعيد[٢] كل هذا ومحمد على يفكر فى أمر هذه البلاد التى لا ينتظم عقدها إلا وتبدأ القلاقل من جديد إلا أن محمد على عقد العزم على اصلاح هذه البلاد التى كان يراها فى مخيلته جنة الله فى أرضه ، فهى نيل عظيم ، وجنة من الحقول هجرها أهلها ، ومماليك يعيشون فى البلاد فساداً ، فكانت خطته استغلال هذا النيل والاستفادة من الأراضى الزراعية المهملة ، وكذا الاستفادة من الشعب بكافة طبقاته ومشاركتهم فى إدارة البلاد وقبل كل شىء مهادنة المماليك واستمالتهم حتى يمكن الاستفادة بطاقتهم بدلاً من القلاقل ، والحروب الأهلية ، وأراد أن يحول هذه الطاقة إلى فائدة وإنتاجا ، فقد كانت بوادر الأمل تشرق لمحمد على خصوصاً أن الشعب المصرى صاحب المصلحة الحقيقية بقيادة المشايخ كانوا يؤيدونه ، وجعلوا يبذلون الجهد فى مساعدته ،

---

(١) أنواع الرسوم والضرائب التى كانت تفرض حينذاك ، هكذا كانت الحياة الاجتماعية بدفع جعل من المال عن كل ميزة من الميزات إن كانت هذه الميزة فى زى معين أو لقب أو تقرب .

(٢) المصدر السابق (١٧١) ٧



الحياة الاجتماعية فى العاصمة

ـ سوق خان الخليلى ـ القاهرة فى مطلع القرن التاسع عشر (سكارلس جرو برستون)

وكان محمد على بالنسبة للمصريين هو الأمل الذى تمنوه ودعوا الله سبحانه وتعالى أن يحققه لهم .

وفى تلك الأثناء كانت الدسائس عند الباب العالى ، ماتـزال مستمرة من المماليك من جهة ومن قناصل الدول الأجنبية من جهة أخرى ، وعلى رأسها انجلترا ، حتى صدر من الباب العـالى قرار بتعيين محمد على واليا على سالونيك ، وتعيين موسى باشا واليا على مصر ، وجاء قبطان باشا لتنفيذ هذا القرار(١) .

وقد بدأ الناس فى التهامس عن مغبة هذا التغيـير الذى أقلق مضاجعهم وغلت الدمـاء فى رؤ وسهم وزاد الهمس وعلا صـوت الشعب بكافة طبقاته ، وتحركت مصر كلها ، وكان تحركا يصحبه عزم وتصميم فكتب العلماء والوجهاء من الشعب وقيادات الجيش [أمراء العسكر] التماساً إلى الباب العالى يرحبون فيـه باستمـرار محمد على واليا على مصر ، لما لمسوه خلال فترة حكمه القصيرة من الاستقرار والرغبة فى الإصلاح ، وقد قصد الآستانة إبـراهيم بك نجل محمد على الأكبر حاملا الالتماس المقدم من قيادات الشعب لبقاء محمد على واليا على مصر وتعيين ابنه إبـراهيم بك دفـتر دار البلاد . وكان عمره حينذاك يناهز السابعة عشر عاما . . وهكذا كان شاباً صغيراً ولكن كان يحمل بين جنبيه رجلا محنكا . . حنكته تجارب والده ، فقد كان محمد على يتخذ من إبراهيم ولده الأكبر أخاً وشريكاً فى كل شىء يتشاوران ويتخذان القرار معاً ، وهكذا ما ستكشف عنه الأيام خلال حكم محمد على لمصر . . وبدأ فى تحقيق أحلامه التى طالما تمناها لمصر . . وخطط لها من قبل ورسم تفاصيلها بما يكمن فى

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٧١)

ترابها من ثروات وفى شعبها من قوة وفى طبيعتها من جمال ليحقق لها العزة والقوة والمنعة ، وبدا أن أحلامه التى طالما تمناها لمصر فى سبيلها لتصبح حقيقة واقعة .

أحلام محمد على فى مصر

إن مجد البلاد التى أحكمها . وضمان الرفاهية الدائمة لهما ، أعز امانىّ وقد وقفت حياتى كلها على هذا الغرض وحده .

محمد على

أحلام محمد على فى مصر

فى هذا الفصل نستعرض معاً أحلام محمد على فى مصر من واقع إمكانياته الطبيعية والتى لمسنا بعض جوانبها فى الفصول السابقة ، فقد استطاع أن ينمى قدراته إبان طفولته فى قريته النائية التى كانت تقع فى أطراف ديار الإسلام ومارس فيها اللعب واللهو ومبارزة رفاقه وتحدى البحر وقاوم مياهه العميقة وأمواجه العاتية . وعندما أصبح شاباً مارس حراسة الطرق وضرب بأيد من حديد على أيدى قطاع الطرق واللصوص والإرهاب ، وقمع الاضطرابات فى النواحى والقرى المنتشرة بالأقاليم والجزر فى بحر إيجه والتى كانت مأوى للقراصنة وملجأ لهم من أيدى الدولة , وسافر لقمع المارقين فى البلدان العديدة وإستفاد فوائد جمة حيث قابل العديد من التجار الأوربين واطلع على الأساليب الحديثة فى الصناعة والتجارة ، وراقب الدول الأوربية وكيف أنها كانت تسيطر على التجارة , وكذا نظم ولوائح الضرائب والجمارك والاحتكار وصور التحكم فى الموانى ومراقبة البضائع وكيفية تحديد نسب الرسوم على كل نوع من السلع ومدى الطلب على كل سلعة قابل العديد من ضباطا والضرائب .

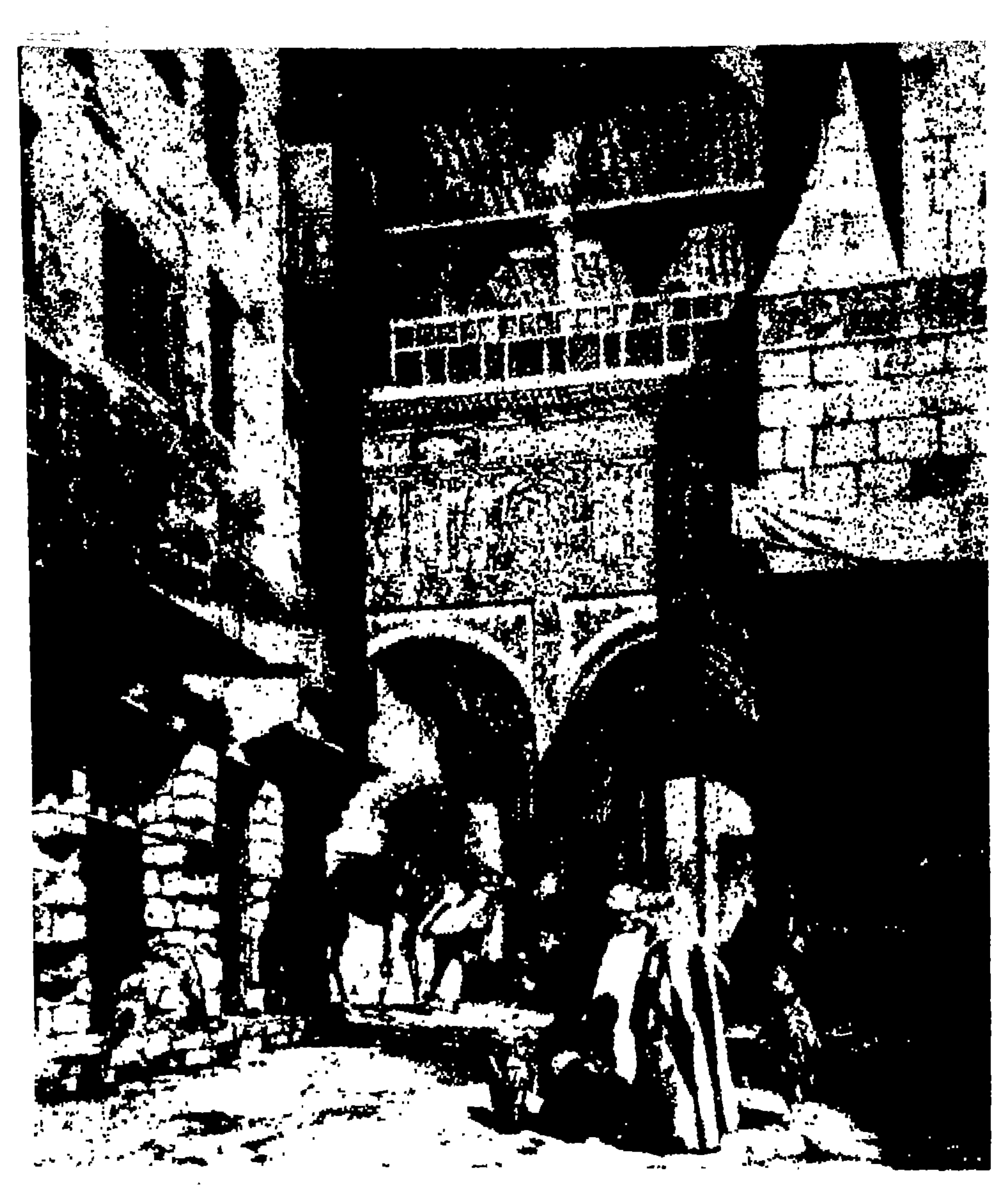
تعلم محمد على ممن كل هذة التجارب والأحداث التى قابلته الكثير والكثير , وقد تأثرت شخصيته وهوضابط يافع صغير فى قوله

بتاجر فرنسى يدعى « ليون » . كان يعمل وكيلاً لمحل تجارى فى مرسيليا ، إلتقى به خلال أعماله التجارية ، فمال إليه لذكائه ونشاطه ، وانتهز محمد على فرصة لقائه بهذه الشخصية وتقرب إليه وتلقى على يديه مبادىء المهنة وأسرارها ، ومارس محمد على فى هذه الفترة التجارة وعقد صفقات كثيرة فى تجارة الدخان وغيرها واستطاع أن يكون رأس مال يعد معقولاً فى هذه الأثناء استقرت معه حالته المادية ، وكان يُسمح لموظفى الدولة وضباط الجيش حينئذ أن يقوموا بعقد الصفقات التجارية إذ أن المرتبات كانت غير كافية وغير مستقرة حيث كانت تصل لمستحقيها بعد شهور من استحقاقها .

وقد استمرت صداقة محمد على بهذا التاجر الفرنسى « ليون »[1] الذى كان يحكى له عن أسرار التجارة ومع كل رحلة إلى باريس عاصمة فرنسا كان يحكى لمحمد على عن باريس بلد النور والثقافة وعن الحرية وشعارات الثورة الفرنسية ومجد الشعب الفرنسى ومدنيته وعن العوامل التى حققت هذا المجد ، وكان محمد على يصغى بشغف عظيم إلى هذه القصص . وأكثر من التردد عليه ، وأصبحت هذه الحكايات زاداً لمحمد على فى عالم المعرفة ، والعالم آنذاك كان يعتمد فى نقل أخباره من مكان إلى مكان على هذه الحكايات وما رآه التجار فى البلاد المختلفة أثناء عقد صفقاتهم ، فلم يكن المذياع قد ظهر بعد ، ولم يكن التصوير قد انتشر اللهم إلا بعض الجرائد والمجلات فى حدود معينة وضيقة .

هكذا كان محمد على يعرف كثيراً عن العالم من خلال التجار والمغامرين والجنود الذين يذهبون إلى المعارك فى أقاصى الدولة العثمانية ويعودون محققين انتصارات أو يمنون الهزيمة . وهكذا كان

(١) كريم ثابت ــ محمد على ــ مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر (ص ١٥) .



مظاهر الكساد تظهر فى شوارع القاهرة مع نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر .

حال الجيش العثمانى فى أواخر أيامه ، ضعف فى كيانه وتحلل فى جنوده وعفن فى قياداته مما جعل الهزيمة هى النتيجة لكل معاركه الحربية .

وقد كان محمد على يحلم بالاستقرار لهذه الامبراطورية المترامية الأطراف ، وكان يدمى قلبه هذا الخلل الشامل والتردى المسيطر على كافة أطراف السلطة ، وكان يسأل نفسه إلى متى هذه الهزائم المتكررة لهذا الجيش العريق ، وإلى متى هذا التدهور فى الدولة العثمانية ، وهو قد سمع الكثير عن طوب كابو وقصر يلدز الذى يقع على ضفاف البسفور والمؤامرات التى تسيطر على هذه القصور السلطانية بين حاشية السلطان محمود والوزراء والجوارى ، والمخططات التى تُحبك بين القيادات العسكرية ، والرشاوى التى أصبحت أهم أسس وشروط تولى القيادة والمناصب العليا ، أمور عديدة وأسئلة مختلفة تلح عليه دائماً ولا يجد لها جواباً ، مسلسل دائم من الفساد والترهل فى أجهزة الدولة ، فهل توجد قوة تستطيع إيقاف هذا النزيف المستمر لثروات الدولة ؟؟

كانت الإجابات تأتى فى يوم صيف متناثرة ، وفى يوم قيظ متتالية ، وسرعان ما تتبدد لاهى تمطر ولا تحمى من القيظ ولا حتى تلطف من درجة حرارة الجو ، لقد كان المناخ محيراً والصورة قاتمة .

ومع ذلك لم ييأس محمد على ، وكان يحلم بتجديد أمجاد الامبراطورية العثمانية على يديه ، خصوصاً وأن الأخبار كانت تأتى كل صباح باقتطاع أجزاء من أراضى الدولة العثمانية ، وبمؤامرات جديدة فى أطراف السلطة أو قلب السلطة وفى أروقة قصر طوب كابى على شاطىء القرن الذهبى بالآستانة .



صورة للحياة الاجتماعية فى مصر ــ منطقة بين القصرين بالقاهرة ــ
ويبدو الاسى على وجوه الماره وتظهر مظاهر التخلف على الشارع المصرى وذلك ابان وصول الحملة الفرنسية نهاية القرن الثانى عشر ومطلع القرن التاسع عشر [وصف مصر]

لقد كان محمد على فى الحقيقة واقعياً فى أحلامه وليس مفرطاً فى الخيال فإن تجاربه مع القراصنة وقطاع الطرق أثبتت أنه رجل بإمكانه التصدى للمشكلات . فهو يتناول المشكلة من كل جوانبها طبيعية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية ويحلل هذه الجوانب بعواملها العديدة كل على حدة ثم كلها جملة واحدة وبالشكل الذى يؤهله لأن يضع قراراً بالحل النهائى للمشكلة ، فهو رجل نادر محنك صقلته التجارب بكل ما فيها .

فقد تجمعت لديه صورة عن مصر وعن أحوالها مما عرفناه فى الصفحات السابقة ، من خلال معياشته وهو ضابطا وقائدا وواليا .

ومن خلال هذه الروايات والأساطير عن مصر ، ومن خلال ما كانت تحكيه له أمه من قبل عن أمر عرافة القرية التى تنبأت لها بمولود سيكون له شأن عظيم يرقى زروة المجد والعظمة ويبلغ مرتبة الحكام والملوك .

كانت تتشكل أمانى محمد على .

وبطبيعة الحال كانت كل هذه الذكريات والقصص فى ذهن محمد على وإحساسه يسترجعها ويفكر فى المستقبل بين الحين والحين ، وفيما يخفيه له القدر من شر أو خير فى هذا المناخ المضطرب وفى هذه البلاد الكثيرة الخيرات الطيبة الأهل .

وبعد كل ما شاهده من إمكانيات فى أرضها الخصبة ونيلها الفياض ، وتاريخ هذا الشعب العريق ، بعد أن رأى الاهرامات فى الجيزة ودهشور وبنى سويف ، وما فى هذه البلاد من آثار عظيمة ومعابد وما سمعه عن عراقة هذه الآثار التى تنتشر فى أرجاء مصر ، كان كل ذلك يهز كيانه من الأعماق .



صورة لمدخل احد المساجد فى القاهرة حيث تظهر مجموعة من أهل الحى حيث تظهر ملامح الاسى
والبؤس على وجوههم وذلك فى القرن التاسع عشر (رسم ارتور فرايس)

وكـان يحلم بالـرخاء لهـذه البلاد والأمن فى ربـوعهـا والهنـاء لأهلها ، فلا عجب فى ذلك فالخير كثير ووفير ، ولكن كيف السبيل إلى هـذا ؟ ومن أين يبدأ ؟ فمـراكز القـوى من الأمراء الممـاليـك عديدة ، ومازالت كل مجموعة من هذه المجموعـات لها أهـواؤ ها الخاصة بها ، وبريطانيا مازالت تطمع فى مصر ليكون طريقهـا إلى الهند سهلاً ، وفرنسا مازالت تطمع فى مصر لتقـطع الطريق عـلى بريطانيا ، وحاشية السلطان لها هى الأخرى مطالبها ويحقدون على محمد على ويرون فيه قوة كبرى ويجب التخلص منه قبل أن تقوى شوكته ويشتد عوده ، ومن ناحية أخرى مازالت العصابات تعربد فى البلاد ولا تترك فـرصة للسلب والنهب إلا وتنتهـزها ، والأعـراب والبدو لهم مآرب أخرى .

أما أهل البلاد الأصليون فإن معظمهم ترك الأرض وهرب من جراء الضرائب المستمـرة والابتزاز المتـواصل من كـل الأطراف ، ففقدت الأرض أبناءها وإنتاجها وتشقق أديمها وجفت الترع فلا نظام للرى ولا طوق اتصال ولا قناطر توصل بين ضفتى النيل أو فروعه ، فضلاً عن نظام إدارى فاسد لا هم له إلا ابتزاز الناس وتحقيق المطامع الشخصية .

ومع كل ذلك كانت أحلام محمد عـلى كبيرة وأيضـاً وردية ، ولا عجب فهو رجل الصعاب وجندى المهمات .

وأدرك محمد على بفطنته أنه لابد من الإعداد الجيد والتخطيط السليم لإصـــلاح مصـر ودفـــع عجلة التنميـة الشـــاملة فى كـل الاتجاهات ، إلا أنه اصطدم فى خططه هذه بتلك القوى المعاديـة للتقدم والتطور ، وما أكثرها على ساحة المجتمع المصرى آنذاك ،

وبنظرة ثاقبة وعميقة لهذه القوى وتحليل لإمكانياتها وجد محمد على أن هناك قوة معينة دون غيرها هى التى تحاول جاهدة وبكل السبل إجهاض أى محاولة للتقدم والإصلاح ، استطاع بذكائه أن يرصد محاولاتهم التى تأكل كل الجهود التى تبذل للرقى بالبلاد . وبلغ الأمر منتهاه وأصبح واضحاً جلياً أنه لا سبيل لازدهار مصر فى وجود المماليك .

وبدا أن هناك معادلة تتسم بصعوبة الحل ، فالرجل يريد الاستقرار للنظام من ناحية ، والسيطرة على القوى المخربة صاحبة المطامع داخل البلاد من ناحية ثانية ، والوقوف أمام القوى الأجنبية المتربصة بمصر من ناحية ثالثة ، وتحقيق التقدم المنشود من ناحية رابعة . أمور أربعة اعتملت فى فكر الرجل حتى كان القرار الحاسم بحتمية التخلص من المماليك .

خطة الاصلاح
وحتمية التخلص من المماليك

اؤكد كذلك اننى مستعد لان اخضع خضوعا تاما بكل قواى لمشيئة الحكومة البريطانية . حتى لو كلفنى هذا السعى حياتى .. وبفعل المبلغ الذى اطلبه مؤقتا ، اعد بان اخف إلى مساعدتها مع جميع رجالى ... وبذل كل دمنا عن طيب خاطر فى سبيل مجد الامه البريطانية ...

شاهين بك

خطة الاصلاح
وحتمية التخلص من المماليك

بدأت طموحات محمد على فى مستهل حياته بسيطة تتناسب مع موقعه من الأحداث وما استطاع أن يحققه من نجاحات سابقة ، حتى عندما ظهر خسرو باشا على المسرح كوال جديد لم يكن محمد على يطمع أن يكون والياً بدلاً منه ، ولكنه كان يأمل فى أن يكون صاحب النفوذ العسكرى الأول فى البلاد ، وخاصة أن طاهر باشا قائد الفرقة الألبانية كان رجلاً طموحاً وينتظر الظرف الملائم ليتغلب على خسرو باشا ، الذى كان ضعيفاً سهل الانقياد ، وفى الوقت نفسه كان متعطشاً للدماء وقطع الرقاب ، وكان الصراع حينذاك محموماً بينهما .

وفى نفس الوقت كان كل الجنود متآمرين لتأخر دفع مرتباتهم ، والحال هكذا نشبت معركة بين المماليك بقيادة البرديسى بك والجيش التركى بقيادة يوسف بك وذلك فى نوفمبر من عام ١٨٠٢ م وذلك بالقرب من مدينة دمنهور ، وطلب يوسف بك جنده ، وكلف محمد على بنجدة الجيش التركى الذى لم يدركه إلا بعد فوات الأوان ،

وزعم يوسف بك أن محمد على تعمد هذا الإبطاء ، وأشيع فى هذه الأثناء أن محمد على لقى مصرعه [1] ، فقد خطر لخسرو باشا أن يتخلص من محمد على ، فدعاه إلى قصره ليلاً ، غير أن محمد على أدرك أن وراء الأكمة ما وراءها ، فرد عليه بأنه سيوافيه فى الصباح على رأس رجاله . وبهذا تخلص من مؤامرة خسرو باشا . وبعد ثلاثة شهور وفى ٢٥ مايو ١٨٠٣ م قاد طاهر باشا انقلاباً على الوالى خسرو باشا وأعلن نفسه قائمقاماً على القاهرة . ولجأ خسرو باشا إلى دمياط ، ويشاء القدر أن يلقى طاهر باشا مصرعه على يد ضابطين تركيين الأصل ، وبذلك أصبح محمد على القائد الأول للجنود الألبانيين ورفعت هذه الحادثة من معنوياته فازداد إيمانه بحسن طالعه ، وهو إيمان عززته حوادث أخرى شتى حدثت له فيما بعد ، ولكن مازالت القوة الوحيدة التى يحسب حسابها هى المماليك وإن كان محمد بك الألفى أحد دعائمهم قد هجرهم ورحل مع الإنجليز عند جلائهم عن مصر . وهنا قرر محمد على أن يهادن المماليك ، وتنفيذاً لذلك أمر بفتح أبواب القاهرة لهم ودخلوها بسلام[1] .

ولم يفطن خسرو باشا بدوره أن الوقت غير ملائم له لمحاولة العودة إلى القاهرة واسترداد سلطته الشرعية فتألبت عليه قوات المماليك ودارت المعركة وانتهت بهزيمته وهو فى طريق عودته إلى القاهرة وقد اقتاده المماليك أسيراً واعتقل فى آخر يوليو ١٨٠٣ ميلادية[2] .

وفى تلك الفترة كان قد عين على باشا والياً على مصر خلفاً

---

(١) كريم ثابت مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٣) ، (ص ٢٤) .

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٢٤)

لخسرو باشا فنزل بالإسكندرية فى ٨ يوليو ١٨٠٣ م وحاول أن يصل إلى القاهرة بطريق النيل فقبض عليه رجال البرديسى وقتلوه .

وخُيل يومئذ إلى بعض الأجانب المقيمين فى مصر أن المماليك بقيادة بكواتهم والألبانيين بقيادة محمد على سيؤلفون جبهة واحدة تقف فى وجه الباب العالى ، حتى أن بعضهم قد ذهب إلى الاعتقاد بأن هذه الجبهة قد تؤلف حكومة ثنائية ، وكان الفريقان قد أذاعا منشورات على الشعب معاً ، فساعد ذلك على انتشار هذا الاعتقاد لدى الشعب أيضاً ، ولكن المماليك أرادوا الاطمئنان نهائياً من ناحية الأتراك بعقد صلح مع الباب العالى يطلق يدهم فى شئون مصر لينفردوا بالحكم . ولاشك أن سعيهم هذا لم يخف على محمد على فعقد النية على التخلص من هذا الحلف فى أول فرصة ممكنة ، ولم يلبث أن سنحت له الفرصة ، ففى ١٢ فبراير عام ١٨٠٤ م عاد محمد بك الألفى على سفينة حربية انجليزية أنزلته على شاطىء أبى قير ، وكان الإنجليز يأملون أن يساعدهم نجاحه على بسط نفوذهم على السواحل المصرية[١] .

وفى هذا يقول شفيق غربال « إن الانجليز كانوا مستائين من زيارة الألفى بك للندن وأن الحكومة البريطانية كتبت يومئذ إلى سفيرها فى الأستانة تكلفه إبلاغ الباب العالى أن انجلترا مصممة على ألا تصغى إلى أى اقتراح يقترحه الألفى بك ويكون فيه مساس بمصالح تركيا وحقوقها فى مصر

وقد استطرد بعد ذلك المؤلف إلى ما يؤدى إلى أن الألفى بك هو

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٥) .

الذى أراد أن يوهم أنصاره بأن انجلترا تؤيده ، وذلك لكى يقوى عزائمهم ، غير أن المماليك وزعماؤهم وفى طليعتهم البرديسى بك ما كادوا يعلمون بعودة الألفى بك حتى قطعوا عليه الطريق وهو قادم خفية فى إحدى السفن الشراعية النيلية فى فرع رشيد إلى القاهرة ولكنه نجا منهم بشق الأنفس وتسلل إلى الشرقية واحتمى فى ضيافة أحد المشايخ العرب . ومن هنا بدأت تتصدع صفوف المماليك ، فأخذ محمد على جانب عثمان بك البرديسى فى صراعه ضد الألفى بك ، وأظهر تأييده له .

وفى مارس من عام ١٨٠٤ م كتب المسيو «دى لسبس» (والد فرديناد دى لسبس صاحب مشروع قناة السويس) إلى تاليران وزير خارجية فرنسا يقول إنه اجتمع مع محمد على وسأله عن الأمور فى مصر وعما ينويه ويعتزم أن يقوم به ، فكان رده أن الألبانيين ينتظرون مرتباتهم وأنه فى اللحظة التى يقبضون فيها مبلغاً من المال سيقدمون على مفاجأة مدوية تحسن العلاقات بينهم وبين الباب العالى وتقضى على المماليك[1] . وهنا قال المسيو « دى لسبس » صارحنى محمد على بقوله « كيف يمكننا الاعتماد على المماليك وقد ارتكبوا شر الجنايات ضد أخيهم وزميلهم وصديقهم (إشارة إلى ما بدر منهم نحو الألفى بك) ، فماذا يمكننا أن ننتظر منهم ونحن أعداؤهم الطبيعيون»[1]

كتب «دى لسبس» هذه الرسالة فى مارس ١٨٠٤ م كما ذكرنا من قبل أى بعد ٢١ يوما من نزول الألفى فى أبى قير ، وفى هذا ما يؤيد أن محمد على كان مصمماً على التخلص منهم من بادىء الأمر ، ولا سيما بعد ما شعر فى وقت ما ثم أيقن بأنهم يريدون تحسين

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٦) .

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٦) .

علاقاتهم وسياستهم مع تركيا على حسابه ثم يغدرون به ، وليس هذا ببعيد عليهم ، وهذا هو حالهم وتاريخهم يشهد بكل ما هو قبيح من غدر وخديعة وسفك للدماء .

وقد رأى محمد على أن البرديسى بك وإبراهيم بك يحاولان القضاء على الألفى بك أخيهم وزميلهم وصديقهم ، والألفى بك يتحالف مع الانجليز ضدهم ، فكيف يستطيع أن يطمئن إليهم ، بل كيف يسعه أن يفكر فى إصلاح حال البلاد وإنقاذها من عبثهم وفسادهم ومن الفتن التى أشعلوا نارها ومازالوا يشعلونها ، وليس فى صدورهم إلا الانتقام ، وليس فى بالهم أى مصلحة لهذا البلد الآمن وهذا الشعب المستضعف[2] .

ومن هنا كان محمد على هو الأمل الوحيد بالنسبة للشعب ، فهم يرون فيه الربان الذى يستطيع الخروج بهم من العاصفة والتغلب على سوء الحالة الاقتصادية ، وكذا نشر السلام وقمع الاضطرابات التى تجتاح البلاد .

من خلال هذه الأحداث نستطيع أن نرى بوضوح أن محمد على يأمل فى حكم مصر ، ولكن ليس بالسلاح ولا بالانقلابات العسكرية ، كان يريد أن يكون وصوله إلى السلطة العليا بصوت الشعب فيكفل له هذا تأييد كبار الشيوخ فى البلاد ، ويؤكد إحساسهم وولائهم للباب العالى وأن تعود البلاد المصرية إلى الحظيرة العثمانية[1] .

وهكذا كانت الأعوام التى قضاها محمد على فى مصر حتى صدور

---

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٢٦) .

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٧) .

فرمان ولايته على مصر فى ١٢ مايو ١٨٠٥م ، كلها صراعات مع المماليك ، وقد لقى من هؤلاء الأهوال والمكائد والدسائس وذاقت مصر خلال هذه الأعوام الويلات الجسام ،

ويتولى محمد على حكم مصر بدأ الصراع الفعلى فى الإصلاح ، وكان حجر الزاوية فى إرساء نظام جديد يعتمد أساساً على تغيير الفكر القائم ، والذى كان يسيطر عليه المماليك برجالهم ومليشياتهم ، فقد كانوا لايأنسون لنظام جديد أو أسلوب حديث فى البلاد ، وقد ظهرت نواياهم فى عدم التعاون وجاهروا بذلك وحاولوا تأليب الشعب على الرجل ، ووصل بهم الحال إلى محاولة التخلص منه واغتياله أكثر من مرة ، ناهيك عن اتصالهم الدائم عن طريق المراسلات السرية بكل الأطراف بغرض تأليب رجال السلطان عليه .

وقد كان رسول السلطان الشرعى لايزال فى القاهرة ، ويأبى التسليم بالأمر الواقع ، وكان هناك فريق من المماليك يقوم بدوره بالإنضال بزعامات الشعب بغرض استمالتهم بحجة أن السلطان هو ظل الله فى أرضه .

كان محمد على يكتسب احترام الشيوخ والعلماء ويخطب ود الشعب حتى جعلهم يعتقدون أن سوء الإدارة هو الآفة الأساسية والمرض العضال فى تردى حالة البلاد وفقرها بسبب ضعف الموارد المالية . وبالتالى الاضطرابات العديدة التى تجتاح القاهرة وباقى أقاليم مصر ، وقد كان الاستياء ومظاهر السخط بادين على جميع فئات الشعب ، وفى هذه الفترة كان محمد على يتمتع بثقة زعماء الشعب ويأمل فى تحقيق أمانية برغبة هذا الشعب ، وهو يريد أن

يصل إلى ولاية مصر بصوت الشعب فيكسب بذلك تأييد كل من الشيوخ والعلماء والشعب كله لمشروعاته مقدماً . ويكون لدى الحكومة التركية الإحساس الكامل بضرورة تواجد محمد على على رأس ولاية مصر حتى تعود البلاد إلى الخضوع إلى سلطانها .

وبدأ محمد على صبيحة توليه زمام الحكم فى تدبير الأمور وبطبيعة الحال لم تكن مهمته فى تحقيق أحلامه وطموحاته سهلة ، بل كانت محفوفة بالمخاطر ، فالمماليك ينظرون إليه بارتياب ، فهو رجل المواقف الصعبة وصديق كل الأطراف ، والبلاد فى حالة فوضى عامة وخراب تام ، ولم تكن سلطة محمد على تخرج عن حدود القاهرة . فكانت هذه الأوضاع تبعث على القلق ، والجنود غير النظاميين يهددون بالثورة إذا لم تصرف لهم مرتباتهم ، والناس قد أرهقتهم الضرائب والرسوم وأعلنوا أنهم لن يتحملوا هذه المعاملة ، والعصابات تعبث بالوجه البحرى ، والمماليك يحتلون الصعيد .

كان على محمد على لكى يحقق أحلامه التى استمرت طيلة فترة وجوده فى مصر ، أن يتعاون مع المماليك لأنهم مفاتيح الأبواب التى تساعد على تنمية البلاد إجتماعياً وكذا إقتصادياً ، فقد كانوا بالمفهوم الاقتصادى أصحاب الجاه والثروة فى البلاد ويسيطرون على التجارة والجمارك ، وفضلاً عن ذلك فهم الفئة التى تملك الميلشيات ويمثلون أهل الوجاهة الاجتماعية فى الطبقة العليا الحاكمة .

فكان محمد على ينظر إلى المماليك على أنهم أمله فى الإصلاح وفعلاً بدأ التعاون معهم . ولانستطيع أن نقول إن المماليك كانوا على رأى واحد بل يختلفون ، فتعاون محمد على مع فئة منهم ويقدر يجعله يستفيد ولعل فيهم من يساعده على مهامه الصعبة .

وعلم محمد على أن هناك اتصالات سرية بين بعض الأمراء المماليك وبين خورشيد باشا لوضع خطة للقضاء عليه ، ولم لا ؟ وهم ينظرون إليه على أنه مغتصب لحقهم الطبيعى فى امتلاك مصر منذ أكثر من ستة قرون مضت .

وذلك بخلاف محمد على الذى كان ينظر إلى هذه القضية نظرة إصلاحية وهو يعرف طريقه للإصلاح جيداً . وهذا نتبينه من خططه التى قام بوضعها ونفذها فى إصلاح مصر ، فقرر محمد على أن يلجأ إلى القوة فهى لغة المماليك ، مستند على حقه الشرعى فى ولاية مصر وضبط أمورها وتهيئة مناخها للطمأنينة والأمن والسلام . فجهز حملة فى ١٨ يوليو ١٨٠٥م من ثلاثة آلاف جندى بقيادته لمنازلة على باشا قائد قوة المماليك التى تؤيد خورشيد باشا .

وفى تلك الأثناء وصل إلى الاسكندرية القبطان قائد الأسطول التركى فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت الحكومة التركية قد أوفدته إلى مصر لاستطلاع الموقف ومدى رغبة الانجليز فى مساعدة الألفى بك رجلهم الأوحد ، واستقرت الأمور بأن غادر خورشيد باشا القلعة فى ٧ أغسطس من عام ١٨٠٥م وسافر إلى الاسكندرية وأصبح محمد على حاكم مصر المطلق وبإقرار من الباب العالى(١) .

ومن ذلك اليوم وجه محمد على كل همه فى كيفية التعامل مع المماليك وكيف يضعهم فى مكانهم وحجمهم الطبيعى ، وفى الوقت نفسه كيف يستفيد من خبرتهم ، وكانوا حينئذ منقسمين على أنفسهم ، فإبراهيم بك وعثمان بك البرديسى وأنصارهما يعسكرون فى الصعيد ، وكان الألفى بك وأتباعه يقيمون فى الوجه البحرى

(١) نفس المصدر السابق (ص ٣٩) .

ويلجأون إلى الفيوم أحياناً . وكان محمد على يعتبر الألفى بك أخطر أعدائه ولاسيما أنه رجل بريطانيا الأول فى مصر .

وفى نفس الوقت قامت مجموعة أخرى من المماليك بقيادة عمر بك وصالح بك بدخول القاهرة ولم يجدوا مقاومة ، فلجأ محمد على للحيلة ، فما كاد جنود المماليك يتوغلون فى القاهرة حتى أحاطت بهم جنود محمد على بأسلحتهم وأعملت فيهم نيرانها من كل صوب ، فقتل منهم من قتل ووقع فى الأسر من وقع ، ثم أراد أن يكسب وقتاً وأن يوسع دائرة خلافاتهم ، فتظاهر بأنه يفاوض بعضاً منهم ، وحينما أصبح فى حالة تمكنه من البطش بهم ، اتجه بجيوشه إلى الصعيد ، ولكن بكوات المماليك كانوا قد استردوا أسيوط فلم يلبث أن أضطر إلى العودة للقاهرة ، إذ تبين له أنه فى حاجة إلى تدعيم قواته الحربية لضمان نصر حاسم عليهم ، فانتهز الألفى بك هذه الفرصة ، وبعد ما تغلب على إحدى فرق محمد على بقيادة حسن باشا عاد إلى الظهور فى الوجه البحرى ، وما أن حل ربيع عام ١٨٠٦ م حتى أصبح موقف محمد على عصيباً وحرجاً ، فالجنود يطالبون بمرتباتهم ويجهرون بذلك ، وكان رجال حسنى باشا يهددون بالنزول من بنى سويف إلى القاهرة إذا لم ترسل إليهم مرتباتهم ، وكثير من جنود الفرقة الألبانية ينضمون إلى بكوات المماليك ، وهنا عرض الألفى بك على محمد على الصلح على أن يحكم البحيرة والشرقية ، ولكن محمد على لم يكن من السهل أن ينساق وراء الألفى بك ، فهو رجل صقلته الصعاب ، والأزمات ، ورد عليه بأنه لا يقبل تجزئة الحكم فى مصر ، ولم يعره أى التفات ، فما كان من الألفى بك إلا أن مضى وبلغ فى زحفه دمنهور وحاصرها ، وكان فى نفس الوقت يواصل

اتصالاته ودسائسه فى الآستانة بتأييد من الانجليز ولا عجب فى ذلك فهو رجلهم الأول فى مصر[1] .

وفى شهر يوليو ١٨٠٦ م تلقى « دورفتى » القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى تركيا كتاباً بأن الباب العالى يرشده أن يقرر قراراً يسعى له الانجليز بكل قواهم وهو الاعتراف لبكوات المماليك بسلطة الحكم فى مصر على أن تكون مقاليد الأمور فى يد الألفى بك . فما كاد دورفتى يتلقى هذا الكتاب حتى نقله إلى مسيو « منجان » قنصل فرنسا فى القاهرة يكلفه بمتابعة محمد على باشا وإطلاعه على ما يدور فى الآستانة[1] ، ولم تكن اتصالات دورفتى ومنجان فى الحقيقة بمحمد على حباً فيه ولكنها كرهاً فى الألفى رجل بريطانيا فى مصر التى تنافسها فى الاستيلاء على مصر منذ حملة نابليون الشهيرة عام ١٧٩٨ م وبالفعل وصل الاسكندرية فى ٢٧ يونيو ١٨٠٦ م القبطان باشا موفداً من قبل الباب العالى ومعه خمسمائة جندى ، وفى مساء يوم وصوله إلى الثغر أوفد رسولاً إلى القاهرة ليطلب من محمد على أن يختار أحد فرمانين معه أحدهما تعينيه والياً على سالونيك والآخر والياً على كريت ويطلب منه فى الوقت نفسه أن يرحل عن القاهرة . ويقال أن الألفى بك وعد القبطان باشا بألف وخمسمائة كيس فى مقابل ذلك[1] .

وقد كان الألفى بك سعيداً بهذه التطورات وأهدى القبطان باشا هدايا ثمينة نظير ذلك وأشاع فى البلاد أن الباب العالى يؤيده ، وأن

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ٤١) .

(١) نفس المصدر السابق (ص ٤٢) وما بعدها .



صوره لقبطان باشا فى زيه الرسمى ، القبطان باشا هو ضابط باعلى مرتبه اص بالسلطـان وكان يتـولى تنفيذ مهامه الناصة والسرية ، وكان من مهامه تدعيم الولاه فى مراكزهم او قتل او اعدام احدهم وحشد الجنود وجمع المال كما كان يقوم بعمل كبير المراسم او كبير الحجاب للسلطان

Source : - Sherf Borae, **Orzental costumes.** Caro Zetouna 1988, p. 49

المرجع :ـــ شريف برعى ، الازياء الشرقية القاهرة :ـــ دار نشر الزيتونة ١٩٨٨ ص ٥١

انجلترا تشد أزره ، وأصبح يلقب نفسه بسلطان مصر وأنه ليس هناك قوة تستطيع أن تنزع منه سلطنة مصر[٢] .

وكان قد وصل موسى باشا والى سالونيك إلى الاسكندرية فى ١٩ يوليو ١٨٠٦ م مع أربعمائة مصرى ضمهم إلى قوة القبطان باشا ، ولكن القوتين معاً لم تكونا كافيتين لإحياء نفوذ الباب العالى ، وأدرك محمد على بحسه أن القبطان باشا لن يستطيع الزحف إلى القاهرة قبل فيضان النيل القادم وخصوصاً أنه كان يعتمد فى تصرفاته على المنجمين حتى ما كاد يصل إلى الاسكندرية حتى ذهب إلى أحد علماء الفلك وطلب أن يتنبأ له بشىء عن انتصاراته المقبلة فى مصر .

وبدأ محمد على فى إعادة حساباته من أجل مقاومة الألفى بك ومن ورائه البكوات المماليك بدسائسهم ومكائدهم ، فأوفد إلى البكوات الضاربين فى الصعيد يفاوضهم ويعدهم بتسوية مرضية ، وكان يقصد من ذلك ألا يبرحوا أماكنهم ولا يخفوا إلى معاونة الألفى بك ، وفى نفس الوقت أخذ فى تجهيز قواته لمقاتلة الالفى بك واستطاع أن يستميل قبيلة أولاد على المشهورة[١] والعمل معهم ضد المماليك ، وأخذ يعيد توزيع قواته فى المناطق المختلفة فى الدلتا واستقدم من سوريا ألف فارس من الولاة ومع اتخاذه لهذه التدابير رد على القبطان باشا بأنه مستعد للنزول على مشيئة السلطان وأوامره ، ولكن لابد من أن يحصل على عشرين ألف كيس ليدفع بها المتأخر عليه للجنود لأنه يخشى إذا تأهب للسفر قبل أن يسدد ما عليه لهم أن يقتلوه ، وأن تستهدف القاهرة لهذا الغرض ، وفى نفس الوقت كان

---

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٤٤) .

(١) وهى القبيلة التى تمتد من محافظة البحيرة والفيوم حتى ليبيا عبر الصحراء الغربية والساحل الشمالى .

قضاة القاهرة وعلماؤها وشيوخها وزعماؤها يعدون عريضة للباب العالى يطالبون فيها باستمرار محمد على فى حكم مصر لأن إدارته خير من إدارة المماليك ، واعتبر قبطان باشا رد محمد على رفضاً لأوامره ، فبدأ فى شن حملة عليه بالتعاون مع المماليك برئاسة الألفى بك ، وتم حصار دمنهور وبدأ فى إطلاق المدفعية عليها ، ولكن قائد حاميتها لم يسلم المدينة بالرغم من أن عدد الحامية لم يتجاوز أربعمائة جندى ، ولكن الأهالى انضموا إلى قوات الحامية ، واشتركت النساء فى المقاومة وأرسل قبطان باشا رسلاً لتفاوض المدينة وحاميتها على التسليم ، فزجهم الأهالى فى السجن واضطر المماليك إلى رفع الحصار عن المدينة بعد أن خسروا خيرة جنودهم .

وفى هذه الأثناء كان محمد على يراقب كل هذه الأمور فى هدوء ، وهو مع ذلك يشحن فى قواته ويقوم بتهدئة الموقف مع الباب العالى بالدبلوماسية العثمانية ، وأوفد أحد ضباطه إلى الآستانة بقدر هائل من الجنيهات الذهبية ليؤكد للسلطان الاعتراف بسلطته الشرعية[1]

ولم ينس محمد على القبطان باشا نفسه والذى بدأ يدرك أنه يتعذر عليه تنفيذ الخطة التى كُلف بتنفيذها وخاصة بعد سيطرة محمد على على الموقف وتدهور موقف المماليك ، فكان من صالحه أن يفاوض محمد على فرحب بإبنه إبراهيم وأرسل كاتم أسراره إلى القاهرة ليتسلم مبلغاً كبيراً وعده به محمد على ، وقد نجحت المساعى وفى ١٨ اكتوبر ١٨٠٦ م أبحر القبطان باشا من الاسكندرية إلى الآستانة ومعه إبراهيم ليقدم ولاء أبيه إلى السلطان ، وكذا المال الذى أغدقه عليه محمد على وكانت عودة قبطان باشا إلى الآستانة على هذا النحو

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ٤٤) ، (ص ٤٥) .

تأكيداً على أن محمد على غدا حاكم مصر الحقيقى بلا مشاركة من أحد[1] .

وفى هذه الظروف لم تفتر اتصالات المماليك بقنصل انجلترا فى مصر ودسائسهم ضد محمد على وذلك عـلى أمل التعـاون للوقوف معهم والاعتراف لهم بحكم مصر ، وكان الإنجليز من جانبهم يرون أن المماليك خير حائل دون إحياء النفوذ الفرنسى فى مصر .

ولكن مع عودة قبطان باشا إلى الآستانة فقد الانجليز الأمل فى وصول المماليـك إلى حكم مصر ، وفى ٢٩ مـارس عام ١٨٠٧ م وصلت حملة إنجليزية مكونة من ألف وأربعمـائة جنـدى واحتلت رشيد وكانت تساعدها قوات المماليك فى فتح طريق لدخول قوات جديدة إلى الاسكندرية ، ولكن حدثت مفاجأة واستطاعت قوات محمد على من الفرقة الألبانية هـزيمة القـوات الإنجليزيـة . وهلل الأهالى لانتصار قوات محمد على ، وكان محمد على حسن الحظ حقاً فيشاء القدر أن يتوفى عثمان بـك البرديسى فى ديسمبـر ١٨٠٦ م ويلحق به الألفى فى أواخر يناير ١٨٠٧ م أى قبل نزول الإنجليز إلى شواطىء مصر بأسابيع للمرة الثـانية فى إبـريل ١٨٠٧ م ، وكـان الإتفـاق أيضاً هـذه المرة أن قـوات المـماليـك ستنضم إلى قـوات الإنجليز ، وكان الألفى قد أوصى قبل وفاته بأن تؤول الزعامة من بعده إلى شاهين بك ، إلا أن قوات محمد على ظهرت عـلى قوات المماليك وانجلت تلك المعركة (معركة الحماد الشهيرة) عن تقهقر الإنجليز إلى الاسكندرية بعد خسارة جسيمة بلغت أربعمائة قتيل ، وأسر رجال محمد على منهم مثل هذا العدد[1] .

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ٤٦) .

(١) نفس المصدر السابق (ص ٤٧)

وأحس محمد على ميلاً من الإنجليز لعقد الصلح . ودارت مفاوضات بين الطرفين تم بمقتضاها الإفراج عن الأسرى الانجليز وإجلاء القوات الانجليزية عن مصر على أن يرعى محمد على مصالح التجارة الانجليزية ، وتم توقيع الاتفاقية من الطرفين فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧ م ، وهكذا كانت الاتفاقية بداية الصداقة بين محمد على وبريطانيا العظمى وضربة عاصفة للمماليك(٢) .

كانت هذه الاتفاقية مكسباً عظيماً لمحمد على حيث بدأت العلاقات التجارية مع انجلترا تستقر ، وامتلأت خزائن محمد على بالأموال بعد أن كانت خاوية ، وبدأ محمد على فى دفع مرتبات الجند والنظر فى أحوال استقرارهم ، وبذلك هدأ الجو لمحمد على بعض الشىء وبدأ يفكر فى أمر المماليك . ولا عجب فى ذلك فهم مازالوا على ما هم عليه من مكر وخديعة يحيكون المؤامرات والمكائد لمحمد على ويثيرون الجنود (ألباناً وعثمانيين) عليه ويضعون العراقيل فى طريق إصلاحاته ، وبصفة خاصة جماعة الألفى بك التى رأسها شاهين بك بعد الألفى ، فقد كانت هذه الجماعة تعيش على أمل أن تصل إلى الاستيلاء على حكم مصر بمعاونة الإنجليز ، وفشلت كل جهود محمد على فى الوصول إلى اتفاق وصيغة تعاون معهم .

وكان محمد على بذكائه يضع عيناً على السياسة الداخلية والعين الثانية على السياسة الخارجية ، حيث كان يرى أن الحرب مع النمسا قد قاربت من النهاية وأن حرباً جديدة ستدور بين تركيا وانجلترا ولن تفكر الأخيرة فى القيام بحرب فى أوربا مادامت مستعمراتها الهندية مهددة ، وقد كانت مصر هى الدولة التى تساعد على قصر المسافة

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ٤٨) .

التى تفصل بينها وبين الهند ، وفى هذه الحالة لن يلتزم المماليك ما التزموه عندما حاول الإنجليز المحاولة نفسها عام ١٨٠٧ م . وكانت خطة محمد على فى هذه الأثناء أن يحاول بكافة السبل القضاء على المماليك حتى يتمكن من الدفاع عن البلاد فى جبهة واحدة ، أما إذا استمر الحال واضطر إلى مقاومة الإنجليز من جهة والمماليك من جهة أخرى فإن مهمته ستزداد صعوبة بلا شك ، حيث كانت كل الدلائل تشير إلى أن المماليك سيتعاونون مع الانجليز . وقد تبين فيما بعد (بعد أن ضرب محمد على المماليك ضربته الحاسمة ١٨١١ م) أن ظنه من ناحية المماليك كان فى محله ، فإنه على أثر استسلام شاهين بك ، وفق المسيو « درومنى » فى الحصول على عدة كتب دارت بين شاهين بك والإنجليز وأهمها كتاب شاهين بك فى أغسطس من عام ١٨٠٩ م إلى قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط ، هذا الكتاب مودع الآن فى محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس ، وقد أورده المسيو «دريو» بنصه الكامل فى كتابه الذى ظهر باللغة الفرنسية بعنوان « محمد على ونابليون » وجمع فيه جميع الكتب التى بعث بها قناصل فرنسا إلى حكومتهم فيما بين عامى ١٨٠٧ م ، ١٨١٤ م .

قال شاهين بك فى الجزء الأول من كتابه إلى قائد الآسطول البريطانى ما نصه : « إنه من الطبيعى أن يسعى كل امرئ لاسترداد أملاك انتزعت منه ، وسعادتكم لا تجهلون أن المماليك كانوا يحكمون مصر زمن طويل ، وبناء عليه فإنه بوصفى الوارث الشرعى للمماليك أعتقد أن لى الحق كل الحق فى أن أصبوا إلى حكم هذه البلاد ، ولكن بما أنى لا أستطيع أن أنتزع الحكم فى الوقت الحاضر

من يد القابض عليه الآن ، وحتى إذا استطعت ذلك فلا يمكننى المحافظة عليه من دون حماية بريطانيا العظمى ، فإنى أطلب حمايتها ومساعدتها بالشروط التى تريدها الحكومة البريطانية أن تمليها على والشعب فى صفى وجميع زعمائه يتمنون اليوم الذى يعودون فيه إلى الحكم القديم .... الخ »[1] .

واستطرد شاهين بك قائلاً : « وإنى لا أستطيع أن أنفذ المشروع الذى اتفقتم عليه مع المسيو « بيتروش » وكيلكم ، إلا عندما أتمكن من دفع نحو خمسة عشر ألف كيس للجنود الألبانيين والترك والمماليك ، وليس هذا المبلغ كبيراً على بريطانيا العظمى إذا قدمته لى ، وإنى لا أطلبه إلا على سبيل الإقتراض وفى استطاعتى تسديده ببضائع من منتجات مصر ، وأؤكد كذلك أننى مستعد لأن أخضع خضوعاً تاماً بكل قواى لمشيئة الحكومة البريطانية حتى لو كلفنى هذا السعى حياتى ... الخ »[1] .

وقال شاهين بك فى موضع آخر من كتابه : « وإذا أرادت بريطانيا العظمى أن تظهر مرة أخرى فى هذه الجهة بأسطولها وجنودها ، ففى استطاعة سعادتكم أن تؤكدوا لها أنه بفعل المبلغ الذى أطلبه مؤقتاً أعد من الآن بأن آخذه لمساعدتها مع جميع رجال وعرب القبائل ، فنجتمع تحت أمرة القائد البريطانى ، ونبذل دمنا عن طيب خاطر فى سبيل مجد الأمة البريطانية[2] .

هذا أهم ما جاء فى كتاب شاهين بك إلى قائد الأسطول

(١) نفس المصدر السابق (ص ٥٣)
(١) نفس المصدر السابق (ص ٥٣)
(٢) نفس المصدر السابق (ص ٥٤)

البريطانى ، ويظهر منه بوضوح إلى أى مدى كان المماليك يتمرغون على أعتاب الإمبراطورية البريطانية ، وكان هذا حالهم منذ أيام الألفى بك . فكل همهم الوصول إلى السلطة وجمع الأموال بأى طريقة ولو كان بالخيانة والدسيسة وقتل الأصدقاء وسفك الدماء ، ولم يكن الإصلاح فى بالهم . وقد حاول محمد على معهم كل على حدة وكذا زعمائهم ، ففاتح بعضهم فى أوجه القصور فى مصر وفى سوء الإدارة وفى تنظيم الجمارك وتحديد الضرائب ، ولكن هيهات . فقد كانوا بعيدين كل البعد عن أى رغبة فى إصلاح شأن البلاد ، فقد كان همهم جمع المال وتنظيم حاشيتهم وشراء مماليك جدد ، وما كانوا يجتمعون إلا ويخططون المكائد ويدبرون الهلاك لمحمد على والى مصر . وأخيراً ضاقت السبل أمام محمد على فى إصلاح المماليك ، وفاض الكيل ، فطريق التعاون مع المماليك لم يتيسر له ، وكانوا يناوؤ نه فى تنفيذ خططه وشكلوا حجر عثرة فى طريق الإصلاح . وبدأ محمد على يأخذ موقفاً محدداً من هؤلاء القوم واستدعى هذا أن يعمل بمفرده ضدهم ويكون فى حرب دائمة بينه وبينهم وكان لزاماً عليه أن يتخلص منهم ويزيلهم من طريقه حتى يتمكن من التعامل مع المشاكل ودفع البلاد إلى الأمام وتخليصها من كبوتها والوصول بها الى ما ترنو إليه ورفعها إلى القمة . ولكن بالرغم من ذلك كله كان يراوده الأمل فى التعاون مع المماليك .

واستعان محمد على ببعض رؤ ساء المماليك منذ عام ١٨٠٧ ميلادية وذلك لاستمالة شاهين بك خليفة الألفى بك . واستمر يقدم له الود خلال مراسلاته ويعرض عليه الإقامة بالقاهرة ، وأخيراً قدم إلى القاهرة وأقام فى الجيزة وخصص له محمد على إيراد اقليم الفيوم وثلاثين قرية من إقليم المنيا وعشر قرى فى الجيزة وأطلق له

التصرف فى كل ذلك وضم له البحيرة بتمامها وكتب له الحجة بذلك .

وطابت نفس شاهين بك بهذا الصلح مع محمد على وارتضى هذا العيش وجاء لمحمد على لزيارته فأكرم وفادته ودعاه ألى مأدبة عند ابنه طوسون وسكن شاهين بك القصر الذى أعده له محمد بالجيزة فى ديسمبر عام ١٨٠٧ م .

وقد كان يبدو أن محمد على سعيداً بأن تهدأ نفوس المماليك وتنطفىء نار الغيرة فى قلوبهم ، ويستعين بهم فى خططه الخاصة بنهضة البلاد ، فمازالت أعداد كبيرة منهم منتشرة فى الصعيد تهدد المواصلات ، علاوة على أن الثقة مفقودة بينهم وبينه يحقدون عليه ويعتبرونه مغتصب ملكهم . والمهم أن بعضاً من المماليك ضرب صفحاً عن عيشة الكفاح والقتال مثل شاهين بك وحذا حذوه بعض الأمراء المماليك فبذلوا الطاعة لمحمد على . وكان شاهين بك يدعو إخوانه المماليك لمهادنة محمد على وإلقاء السلاح وذلك فى أوائل عام ١٨٠٨ م . وكان عدد ميليشيات المماليك حينئذ بقدر بحوالى ٢٥٠ مقاتل ، صحيح أن عددهم ليس كبيراً ولكن قوات المماليك كانت مدربة على أعلى درجات القتال ومهارة الكر والفر ويحسب حسابها ، فقد كانت تهدد خطوط المواصلات فى الصعيد وتشكل تهديداً مستمراً للنظام الجديد .

ولقد كان لدعوة شاهين أثرها فى كسر حدة المماليك ، فتوقفت حركات القتال ، وهدأت الحالة نسبياً ، وقد يرجع السبب أيضاً إلى ما أصاب المماليك من الضعف واليأس الذى تسرب إلى نفوس زعمائهم . فإبراهيم بك الكبير أضعفته الشيخوخة فصار أقرب إلى

الراحة والسكون بعد ما هدت السنون من نشاطه وقوته ، وكذلك كان حال عثمان بك حسن ، وكان كبيراً للمماليك المعترف لهما بالزعامة بعد موت الألفى بك والبرديسى . ومع هذا الضعف واليأس فقد ظلا على عهدهما القديم من كراهية لمحمد على ، وعدم الثقة فى مقاصده حيالهم ، أما شاهين بك المرادى (خليفة البرديسى) فلم يكن له نفوذ بجانب إبراهيم بك وعثمان بك .

ونستطيع أن نقول إن هذا الهدوء الذى كان يخيم على المماليك فى الصعيد أو الوجه البحرى كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ، فما كانوا ليسكتوا على محمد على أو يتقبلوا فوزه بحكم ولاية مصر ، فالنية معقودة على بذل الدماء دون هذا الملك العتيد .

كان محمد على من جانبه يعلم نفسية زعماء المماليك ، وتجاربا معهم جعلته لا يطمئن إليهم ، فتخطاهم وجرت مساعيه إلى استمالة صغار البكوات والكشاف من أتباعهم ، فأنتهز فرصة الهدوء النسبى الذى ساد صفوف المماليك ، ويبدأ يوفد رسله إليهم ويدعوهم إلى الاخلاد للطاعة على أن يرتب لهم رواتب وهم مقيمين فى القاهرة ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يفصم عرىَ المماليك .

ولما مات شاهين بك المرادى خليفة البرديسى فى مايو عام ١٨٠٨ ميلادية ، أراد محمد على أن يظهر سطوته وأنه ولى الأمر ، فعين سليم بك للمماليك المرادية خلفاً لشاهين بك ، وخلع فى الوقت نفسه على مرزوق بك بن إبراهيم الكبير وظيفة حاكم جرجا . فوضع المماليك بهذا التعيين المزدوج أمام الأمر الواقع وجمع فى الوقت نفسه بين إعلان سلطته عليهم واجتذاب إبراهيم بتعيين ابنه حاكماً لجرجا . ولم يعهد المماليك أن يتحكم فيهم الولاة الأتراك السابقون ويتدخلوا فى

شئونهم إلى هذا الحد الذى وصل إليه محمد على ، فقد كانوا محتفظين بسلطة تمكنهم من اختيار زعمائهم ، وكان الصعيد تحت مطلق تصرفهم . واجتمع رؤساء المماليك على قبول الأمر الواقع على مضض ، فقد كانوا لا يؤدون ما على البلاد التى تحت سلطتهم من الأموال الأميرية نقداً أو غلة . وكان هذا السلوك منهم بمثابة احتجاج سلبى على سياسة محمد على ورفض لأى خطط لتنمية البلاد .

لذلك هددهم محمد على بتجريد حملة عليهم إذا لم يؤدوا ما عليهم من الأموال الأميرية المقررة ، فقام شاهين بك الألفى بدور الوسيط بين الفريقين واتفقوا على مضض أن يؤدوا ثلث إيرادات الدولة وقدر ذلك بسبعة آلاف ومائة ألف إردب من الغلة فى مارس ١٨٠٩ م ، ومع ذلك لم يفوا بما وعدوا به .

وهنا كانت المواجهة بين المماليك وبين خطط إصلاح محمد على وما كان يحلم به فى سبيل تنمية موارد البلاد ، فما كان منه إلا أن قام بحملة تأديبية فى سبتمبر عام ١٨٠٩ م لإخضاعهم واستخلاص الصعيد من أيديهم ، وأيقن محمد على أنهم ليسوا على مستوى المسئولية فى مساعدته على تنفيذ خطط الإصلاح التى من المرجح بل من المؤكد أنه أطلع رؤساءهم عليها ، كما أطلع عليها زعماء البلاد ومشايخها مثل عمر مكرم والدواخلى والشرقاوى والمهدى ، فقد كان دائم التحدث عن آماله وطموحاته فى الإصلاح وهو ما حبب فيه زعماء الشعب .

كان المماليك من ناحيتهم على حذر وفى حالة تربص فى صحراء الصعيد وجبالها فى مناطق سوهاج وأسيوط ، فرأى محمد على أن الفرصة سانحة ليتولى حكم الوجه القبلى . فسار فى شهر أكتوبر من

القاهرة فى جيش يبلغ ستة آلاف مقاتل ، ولم يكد يبلغ أسيوط حتى بادر المماليك إلى طلب الصلح ، فاشترط عليهم محمد على أن يرحلوا عن الوجه القبلى ويقيموا فى القاهرة على أن يعطيهم بعض الجهات يستغلونها ويدفعون من أمواله الضرائب التى تفرض عليهم ، ووافق المماليك وكان الاتفاق فى نوفمبر من عام ١٨٠٩ م ، وطلب المماليك مهلة ثلاثة شهور يقضون فيها مصالحهم ، فقبل محمد على هذه المهلة وعاد إلى القاهرة . ولما انقضت المدة طلبوا مدها لعدة أشهر أخرى فقبل أيضاً ، ولما انتهى الأجل أنذرهم إذا لم يحضروا ليجرد عليهم الجيش فأذعنوا وبدأوا فى التنفيذ .

وسار إبراهيم بك وزملاؤه إلى القاهرة فى مايو ١٨١٠ م ، ولما كان قريباً من الجيزة فقد عسكر بالبر الغربى ، وهناك ترددت الرسل بينه وبين محمد على الذى كان مقيماً بقصره فى شبرا ، وتعددت مقابلات الرسل على غير طائل ، فقد كانت الثقة مفقودة ، واستاء إبراهيم بك من المقابلة التى قوبل بها إذ لم تقصف لحضوره المدافع كما كان ينتظر ، وتأزم الموقف فاعتزم العودة إلى الصعيد وتبعه فى انسحابه البكوات والكشاف المماليك الذين لبثوا فى مصر سنتين فى حالة رضا بحاكم محمد على . وعاد الاتحاد إلى صفوف المماليك وقاموا بتنظيم أنفسهم مرة أخرى فى الصعيد واستقلوا بحكم الصعيد بعيداً عن نفوذ محمد على .

ولقد استاء محمد على من هذه الحركة ، وجرد جيشاً جديداً لمحاربة هؤلاء الخصوم المتمرسين على الخيانة والعناد .

وفى هذه الأثناء وبالتحديد قبل أن يقوم بحملته مع الجيش على المماليك طلب منه الانجليز السماح لسفنهم الحربية بدخول ميناء

الاسكندرية ، وكانت حجتهم فى هذا الشأن واهية وهى أنهم يريدون أن يتيقنوا من إمكانية إرسال قوات إلى مصر إذا قطعت العلاقات بين تركيا وانجلترا وحاولت فرنسا الاستيلاء على مصر ، وسمح لهم بذلك بشرط ألا تدخل الميناء سوى سفينتين معاً فى كل مرة ، *وكانت موافقة محمد على على ذلك بفرض مد جسور الصداقة مع الانجليز من ناحية ، ولوضع حد لاتصالاتهم بالبكوات المماليك من خلف ظهره من ناحية أخرى . وفى أغسطس ١٨١٠ م زحف إلى الصعيد وانتصر على المماليك فى البهنسا واللاهون واستولى على اقليم الفيوم . وقد انسحب ابراهيم بك وعثمان حسن وسليم بك زعماء المماليك إلى أسوان ورجع شاهين بك الألفى يطلب العفو من محمد على فعفا عنه وسمح له بالإقامة فى القاهرة ومنحه داراً ليسكن فيها بالازبكية فى اكتوبر ١٨١٠ م ، وكذلك فعل كثير من بكوات المماليك فطلبوا الأمان من محمد على فأمنهم على أنفسهم وعفا عنهم وأذن لهم بالعودة إلى القاهرة والإقامة فيها .

وأخضع محمد على الصعيد إلى حكمه ودانت له مصر قاصيها ودانيها ، ورجع المماليك الذين قدّموا طاعتهم إلى القاهرة وأخذوا ينصرفون إلى أسباب الرفاهية والرغد ، وأغدق عليهم محمد على من خزانة الحكومة ما جعلهم يستطيبون الإقامة فى القاهرة ويؤثرونها على عيشة الكفاح والقتال ، وانصرفوا إلى ترتيب عيشتهم الجديدة ، وشرع معظمهم فى التزوج وإعداد الافراح ، وكان يخيل إليهم أنهم مقبلون على حياة الهناء والرفاء والبنين ، وأنهم استراحوا من مشقة الحروب وأهوال الكر والفر .

ولكن محمد على لم ينس تاريخهم ومكائدهم ، فهو يعد لهم العدة

وينتظر الفرصة المواتية لكى يأخذ بهم ، فقد نقضوا عهوداً كثيرة معه من أجل الاصلاح ، وهكذا كان زعماؤهم مثل شاهين بك الألفى الذى هادن محمد على وبقى فى الأزبكية وما انفك أن انقلب عليه وخان العهد وتسلل إلى الصعيد متحالفاً مع إبراهيم بك .

هكذا كان يقاسى محمد على من المماليك وخيانتهم وغدرهم ، وكذا الحروب العديدة التى خاضها معهم فى كل أرجاء البلاد ، وكانت مؤامراتهم حتى فى أوقات السلم والمهادنة دائمة ومستمرة . فكانت حياة محمد على هماً بالنهار وحزناً بالليل بسبب هؤلاء القوم .

وفى أواخر يناير ١٨١١ م سافر محمد على إلى السويس ليتفقد الأعمال التى كانت فى مرفئها ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى القاهرة فى ٤ فبراير على أثر ضبط كتب مريبة متبادلة بين بكوات المماليك فى الوجه القبلى وزملائهم فى القاهرة[١] وسليمان باشا والى سوريا ، ولم تكن علاقاته بمحمد على على ما يرام ، وهنا كان القرار قراراً فوق العادة قراراً مصيرياً لابد من الضربة الحاسمة القاطعة . وأبقاه محمد على فى الكتمان ، ثم أذاع أنه سيلبى نداء السلطان ويُسَير حملة على الجزيرة العربية لتأديب الوهابين .

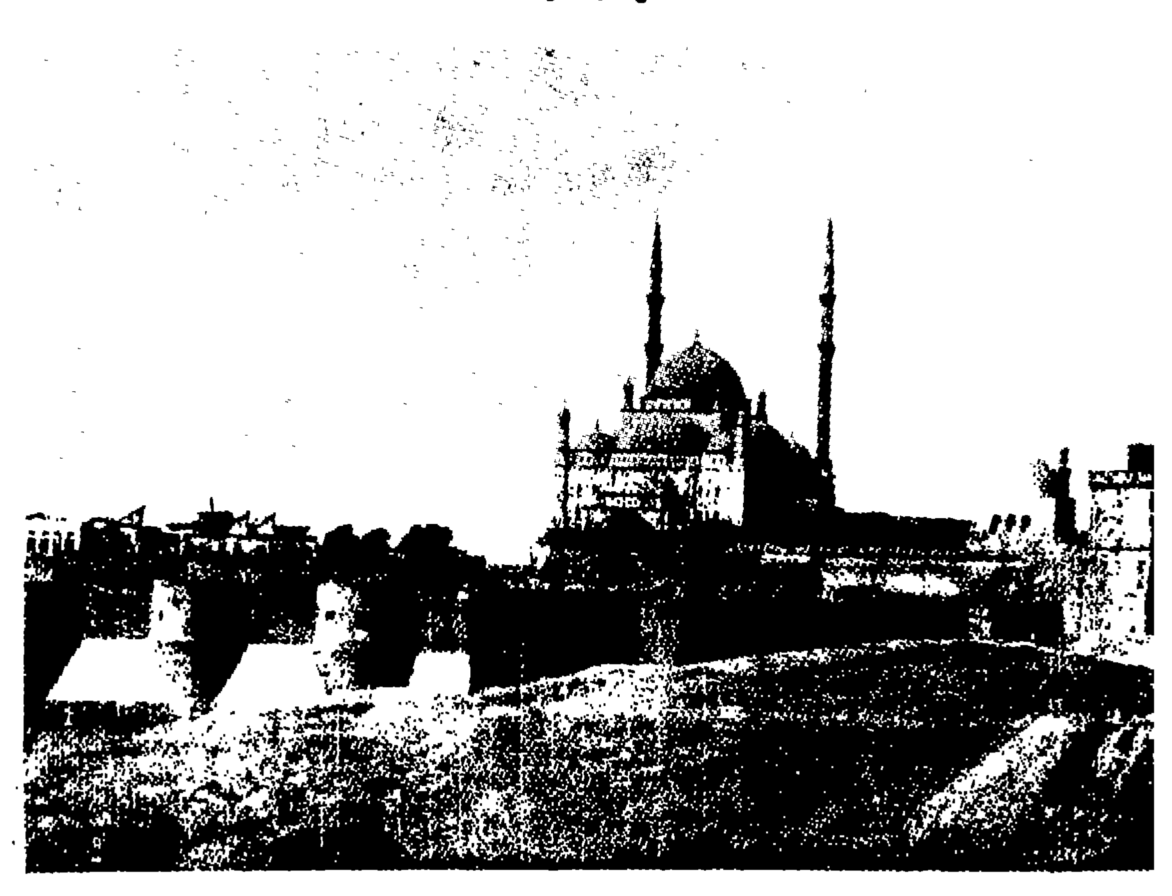
وقبل أن نتعرض لحادثة القلعة الشهيرة سنرجع سبعة قرون إلى الوراء لقصة بناء هذه القلعة (التى كانت مسرحاً لتنفيذ قرار محمد على المصيرى) وإنشائها وكيف تم بناؤها ولماذا ؟

اسم القلعة يرتبط باسم صلاح الدين الأيوبى . فعندما قدم مصر استدعى وزيره بهاء الدين قراقوش الأسدى وأمره أن ينشىء له

---

(١) كريم ثابت ـ مرجع سابق ، ص ٥٦ .

قلعة صلاح الدين التى شهدت احداث مذبحة القلعة



قلعة فى الجبل وأن تبنى هذه القلعة فى الجبـل ومن صخور الجبـل نفسه ، ويقف الموت عاجزاً على أبوابها ، وقد كان إنشاء هذه القلعة أمنية من أمانى صلاح الدين منذ أن تعرض للاغتيال أكثر من ثلاث مرات بالخناجر المسمومة على ايدى الحشاشين الذين كانوا يسكنون فى أعلى الجبال وبالتحديد فى قلعة الموت التى تقع وسط بلاد فارس ، حيث القومية الكردية ، فى أوائل العقد الثانى من القرن السـادس الهجرى .

ومع جلوس صلاح الدين على عرش مصر عام ٥٦٧ هـ كانت الحروب على قدم وساق بين الصليبين والمسلمين فى سواحل الشام ، وبدأ صلاح الدين فى تثبيت حكمه فى مصر وإزالة شعار الفاطميين والقضاء على فلولهم فى جنوب مصر ، فقد اجتاحوا القرى وأغرقوا الحقول ، ومع ذلك لم يتجسد مدى اهمية بناء القلعة إلا بعد أن هزم فى معركته الأولى وهزيمته الاخيرة فى موقعة الرملة ، فقد كان الافرنج متأهبين له وهو يعبر صحراء سيناء الموحشة بجيشه ، ولم يتركوا له الفرصة حتى يلتقط أنفاسة ، فقد حددوا له زمان المعركة ومكـانها وهوت سيوفهم على جنوده المتعبين فبددتهم فى غضون ساعات قليلة ونثرتهم على وجه الصحراء كعصف مأكول ، ولم يجدوا قلعة يحتمون بها ولاسورا أو حصنا يتحصنون به ، وتحولت سنياء كالعـادة كفخ قاتل ، بعد ذلك أخذ يعد العدة سبع سنوات كاملة حتى يعود بقواته إلى عبورها والقتال من جديد ، وفى هذه المرة كان هو الذى حدد المكان فى تل بفلسطين يسمى «حطين» فقال له قراقوش « يا مولاى أسوار القاهرة فى حالة يرثى لها ، فأين تكون القلعة ؟» قال السلطان «اختر من الأسوار أوسطها وأكثرها مناعة وأطيبها هواء » . ويـدأ

قراقوش فى اختيار الموقع فعلق قطعاً من اللحم بطول الأسوار وكلف الحراس بمراقبة هذا اللحم ومعرفة متى يفسد ؟ ومتى يتغير لـونه ؟ وفسدت كل القطع بين يوم وليلة إلا فى مكان واحد لم تفسد قطع اللحم على أسواره إلا بعد يومين وليلتين . وكان هذا هو المكان الذى اختير ليكون قلعة الأمان وعلى مدى عامين تواصل العمل فى القلعة ليلا ونهار فنقلوا الأحجار من المعابد .

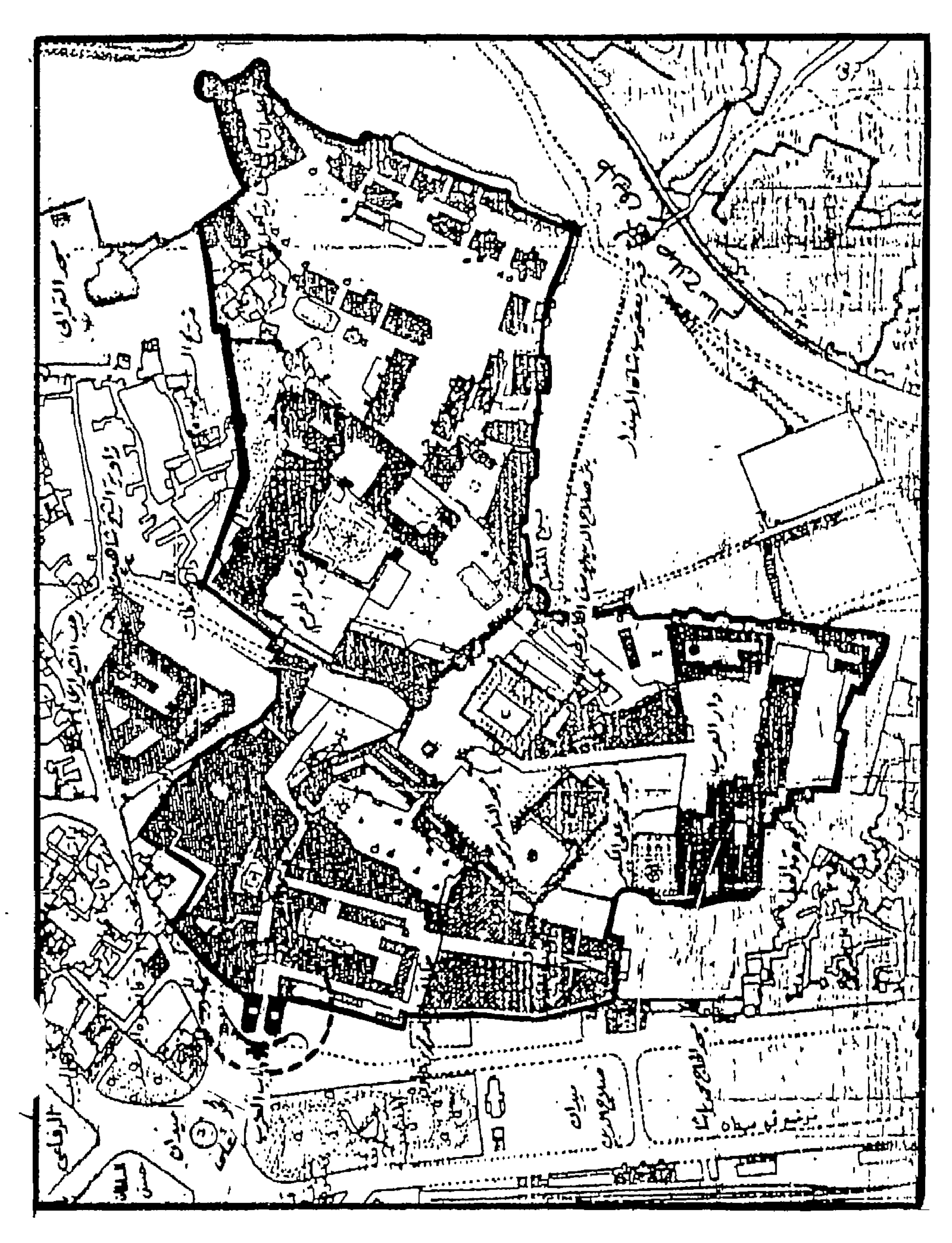
فإذا تعرفت على تلك المواقع وثبتت صورتها فى ذهنك ، فاسمع ماجرى فيها يوم أول مارس عام ١٨١١ م ، فكما ذكرنا من قبل أن محمد على قد غادر السويس متجها إلى القاهرة ليتصدى لمؤامرات مماليك الصعيد ومماينويه بشأنهم

وما أن وصل إلى القاهرة حتى بدأ يهيء للحملة على الوهابين تلبية لنداء الحكومة التركية وعهد لواء قيادة الحملة لابنه أحمد طوسون باشا ، وأعد مهرجاناً فخماً بالقلعة ، حدد له يوم الجمعة أول مارس عام ١٨١١م للإحتفال بإلباس إبنه خلعة القيادة .

ودعا رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم . وكان هذا الاحتفال العظيم يبدأ بأن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة ويتجه من القصر بالقلعة إلى خارج القلعة فى أبهته وموكبه الفخم عبر باب العزب مخترقا باب الـرميلة مرور بأهم شوارع القاهرة حتى معسكر الحملة فى القبة ، وقد كانت مثل هذه الإحتفالات تحتشد لها الجماهير. وكان محمد على قد دعا جميع الأمراء والبكوات والكشاف المماليك وكذا أتباعهم لحضور هذا الموكب . وقد لـبىّ المماليك الـدعوة وركبـوا جميعا فى أبهى زينـة وأفخم دثيات على خيولهم وذهبوا صبيحة هذا اليوم إلى القلعة قبيل

الموعد المحدد لركوب طوسون باشا ، وهم يخفون فى صدورهم الكراهية والحقد ، وقبل ابتداء الحفل دخلوا على محمد على فى قاعة الاستقبال الكبرى بقصره الملكى فتلقاهم بالحفاوة . وكان عدد المدعون يزيد عن ١٠٠٠٠ عشرة آلاف شخص من كبار القوم ومختلف الطوائف . وظل حاملو الطعام والسقاة يروحون ويجيئون خلف الضيوف فى أدب جم وصمت تام . ووقف حملة المراوح خلف ضيوف المائدة الرئيسية يحركون مراوحهم فى حذر ، فى حين راحت الفرقة الموسيقية تعزف ألحانا ترقص على نغماتها بعض الراقصات وكان المنظر خلابا فقد كان جميع الضيوف يرتدون ملابس خفيفة من الكتان المتعدد الألون يغلب عليه اللون الأبيض واشتعلت المشاعل وأضاءت المصابيح المعلقة على الجدران فى كل مكان أضواء قوية زادت من بهاء القاعة وشكر محمد على ضيوف الحفل على تلبية الدعوة وطلب منهم أن ينال ابنه التكريم إذا صاروا معه فى موكبة وقدموا اعتذارهم عن عدم حضور مماليك الصعيد للاشتراك فى هذا المهرجان الكبير فقابل الباشا الاعتذار بسماحة وقبله وتجاذب معهم أطراف الحديث وشربوا اثناءه القهوة ودخنوا النرجيلة ثم نادى المنادى برحيل الموكب فعزفت الموسيقى ، وانتظم قرع الطبول ، وكان ذلك إعلانا عن تحرك الموكب ، عندئذ نهض المماليك وقوفا وبادلوا محمد على عبارات التحية والاحترام ، ورد عليهم بمثلها وصاروا حتى يأخذون مكانهم فى الموكب الضخم .

ولما تقلد الأمير طوسون خلعة القيادة بدأ الموكب يسير منحدرا من القلعة ، وتحرك الموكب تتقدمه طليعة من الفرسان الدلاه يقودها ضابط يدعى « اوزون على » ويتبعها والى الشرطة والأغا محافظ

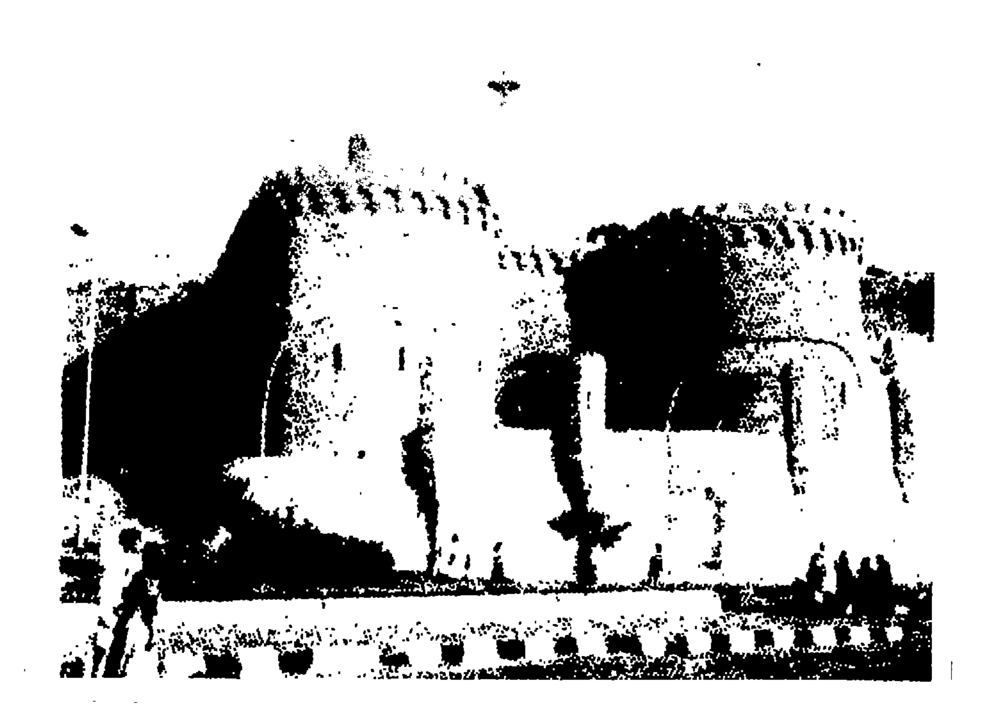


خريطة القلعة وموضحا عليها باب العزب الذى شهد احداث المماليك .

المدينة والمحتسب ، يليهم الوجا قليه ثم كوكبة من الجنود الأرناؤ وط يقودهم « صالح آق قوش » ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب ومن بعدهم بقية الجنود فرسانا ومشاة ، وعلى أثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب المختلفة .

وقد سار الموكب على هذا النسق منحدرا إلى باب العزب المتقدم ذكره ، متخذا ذلك الطريق الضيق الوعر الذى وصفناه من قبل ، فاجتاز الباب طليعة الموكب ثم رئيس الشرطة ثم المحافظ ومن معه ، ثم الوجاقلية . ولم يكد هؤلاء يجتازون الباب الغربى حتى توقفت الموسيقى عن العزف وانتحت الراقصات جانباً ، وحمله المراوح توقفت فى أيديهم المراوح فى حذر وترقب . . . وهكذا توقفت عقارب الزمن ، وتوقفت القلوب عن النبض ترقباً وخيفة حين أرتج الباب الكبير ـ باتب العزب ـ وأقفل من الخارج على حين فجأة إقفالاً محكماً فى وجه المماليك ومن ورائهم الجنود الارناؤ وط ولم تمر لحظات حتى دوى طلق الرصاص من نافذة إحدى الثكنات وكان الجنود على علم بما تدل عليه هذه الإشارة ، تحولوا عن الطريق فى صمت وسكون ، وتسلقوا الصخور التى تكتنفه وتعلوه يميناً وشمالاً وأخذوا أماكنهم على الأسوار والحيطان والصخور المشرفة على هذا الممر . ولم ينتبه المماليك بادىء الأمر إلى أن الباب قد أقفل واستمروا يتقدمون متجهين إليه ، ولكن لم تكد تبلغه صفوفهم الأولى حتى رأوه مقفلاً . ولم تكد تلك الطلقات تدوى فى الفضاء حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون فى هذا الطريق الغائر فى الأرض ، فالباب ـ الضخم مقفل فى وجوههم والجنود الأرناوؤ ط من ورائهم[1] ومن فوقهم وعن يمينهم وشمالهم يتناولونهم برصاص

صوره باب العزب أحد أبواب القلعة
فى الناحية الغربية الذى أقفل فجأة فى
وجه طابور المماليك أول مارس عام
١٨١١ لتكتب خلفه نهاية
حكم المم يك فى مصر .



بنادقهم وكانت الضربة الحاسمة القاضية التى اقتلعت المماليك من جذورهم ومثلت موقعة القلعة آخر حلقات الصراع بين محمد على وبين المماليك وطوت مصر صفحة من تاريخها لتبدأ صفحة جديدة منطلقة تحت حكم محمد على ومحلقة إلى العالمية ليتحقق لها المجد والعزة التى طالما كانت تحلم بها منذ زمن بعيد امتد لسبعة قرون .
وظهرت مصر على ساحة المجتمع الدولى بثوبها الجديد قوية شامخة متطورة ، ولم تكن فى تاريخها أقوى ولا أعظم مما كانت فى هذا العصر ، عصر محمد على بانى وصانع ومخطط نهضة مصر فى التاريخ الحديث .

خاتمة :

وبعد فإننا نرى أن محمد على يعد واحداً من أعظم القيادات التى حكمت مصر فى فترة من فترات تاريخها الطويل ، ولمصر أن تفخر بحكمه ، فقد انتشلها من القهر والتخلف واستطاع أن يقف بها جنباً إلى جنب مساوياً ومتفوقاً أحياناً أخرى أعتى القوى العالمية ومطاولاً لها ، وجعل منها حصناً منيعاً يهابه الغزاة والطامعون من أوربا .

ومهما قيل عن الأسباب والدوافع التى دفعت محمد على إلى تحقيق ذلك ، فإن العبرة دائماً بالنتائج التى تعتبر هى المحصلة النهائية للحكم على القيادة ، وهو حقق لمصر ما لم يحققه لها غيره من نتائج ، فأرض مصر تشهد له وشعبها مدين له . فقد نؤكد على أن محمد على يجب أن يُدرس ويُحلل بمفهوم ومنطق عصره يجب أن يحكم عليه من خلال معطيات وظواهر ومبادىء ذلك العصر الذى عاشه وتعايش معه ، وهنا سوف تظهر جلياً عظمة الرجل ونضع أيدينا على سر هذه العظمة التى حبا الله بها هذا القائد .

وحتى لو شكلت محكمة للحكم عليه بمفاهيم ومنطق العصور الحديثة ، فإنها لا يسعها إلا أن تنحنى لإنجازاته احتراماً وإعزازاً ولشخصه تقديراً وإجلالاً .

قائمة المراجع

١ ــ أنور زقلمه : المماليك فى مصر ــ مطبعة المجلة الجديدة .

٢ ــ على مبارك . الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ـ الجزء الأول ــ مركز تحقيق التراث ــ هيئة الكتاب ــ الطبعة الثانية ١٩٨٠ .

٣ ــ كريم ثابت ــ محمد على ــ مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر .

٤ ــ عبد الرحمن الرافعى . عصر محمد على ــ دار المعارف ــ الطبعة الرابعة ١٩٨٤ .

٥ ــ عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجمة والأخبار ــ الجزء الثالث ــ دار الجبل بيروت .

٦ ــ احمد عبد الكريم سليمان : تيمور لنك ودولة المماليك ــ الطبعة الأولى ــ دار النهضة العربية ١٩٨٥ .

٧ ــ وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ــ « ترجمة محمود عابدين ، سليم حسن » مطبعة المعارف ١٩٢٤ .

٨ ــ على إبراهيم حسن . تاريخ المماليك البحرية ــ دار النهضة المصرية ــ ١٩٤٤ .

٩ ــ إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر المماليك الجراكسة ــ دار النهضة المصرية ــ ١٩٦٠ .

فهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٥٨/١٩٩٢

ISBN 977 - 01 - 3048 - 6

محمد على ... كتاب غير تقليدى !

يعرض الكتاب لنشوء وتطور نظام المماليك فى مصر ، ثم يتناول - وبشكل جديد - قصة محمد على مُذنشأته حتى وصوله للحكم .. ورؤيته الخاصة لحقيقة الصراع بينه وبين المماليك ..

والفكرة الأساسية التى يقدمها د . حسين كفافى هى « ان حادثه القلعة التى جرت احداثها فى اول مارس ١٨١١ م كان محتملًا ان تحدث » كى يتحرك التاريخ فى مساره الذى اتخذه بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر وفى اتجاه التحديث فى سبيل بناء مصر الحديثة .

٦٥٠ قرشـــا مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب